

57

كتابي



إيثيل مافين

الطريق إلى بشر سبع

الجزء الثاني

توزيع عام : شفا سبور الأرمينية

أكبر مكتبة وطنية

المؤسسة العربية الحديثة

بيروت - لبنان
طبعة ١٩٨٠



الطريق الى بشر سبع

الجزء الثاني

ايشيل ماتين

تجميعاً : مناسير التركية

ونسوية - التي تسهم في نشاطها وتكاد تأكل حياتها اكلا .
ولم يكن في وسعها الاعتذار وهي من خطباء الصقل !

لقد قيل لـ روبرت أن صديقه بطرس منصور مات بعلة
في القلب ، لأنهم في علم الطب لا يعرفون شيئا اسمه « تحطم
القلب » على اثر صدمة مؤزلة . ولكن روبرت لم يهرع عن
يقين أن فلسطينيين كثيرين عدا بطرس منصور لا بد أنهم ماتوا
بتلك العلة ذاتها بعد « النكبة » !

ان هذه النكبة هي التي تأكل اليوم قلب ماريان أيضا
ولا شك . ماريان التي غدت وحيدة في الدنيا . أجل إن لديها
ابنها ، ولكن المرأة بحاجة قطعاً إلى « شيء ما » أكثر من الابن
لمواجهة الحياة . ولكم كان هذا الابن مخوراً بأبيه في طفولته .
وأن جده لأمه ليرجو اليوم أن يجد فيه حفيده مدعاة للفخر
او الثقة على الأقل . أن يجد فيه رجلاً مثزناً ذا «مة» ، يعتز
كثيراً بأنه كان فيها مضى صديقاً حبيباً لأبيه الراحل .

لقد كتبت ماريان إلى أبيها قائلة : « إن الصبي يشعر بأنه
ينتمي إلى آل منصور أكثر من انتمائه إلى آل ملبى . وذلك
بشير خير على كل حال . فلا بد للفتى أن يشعر بعروبته . بأنه
عربي . وبأنه فلسطيني . وأنه من سلالة سمع مظلوم
مضطهد .. شعب أبيه المنكود » .

وفجأة ابصر بهما « روبرت ملبى » من باب بهو الجمرح
المفتوح واقفين إلى جوار حاجز مئتل بالحقائب ، وماريان
بدون تبعة كعادتها ، وقوامها رشيق أثيق كالمدببة ، وإلى

الكتاب الثاني

المنفى

- ١ -

توجه « روبرت ملبى » إلى مطار لندن لاستقبال ابنته
« ماريان » وحفيده « أنطون » . وكان قد غادر - منذ
أحد عشر عاماً - هو وزوجته « الزبيث » البلاد التي كانت
تسمى (فلسطين) من مطار كهذا المطار في طريقهما إلى
الوطن ، أو ما كان الناس يسمونه الوطن ، أما هو والزبيث
فكانا يعتقدان أنهما إنما يفادران وطنهما الحقيقي ، لأن
(ياها) هي وطنهما وليست لندن ! . ياها أو فلسطين بأسرها .
ولكم ذرفت الزبيث من الدمع وهي تلوح بيدها من نافذة
الطائرة في ذلك اليوم ، مع أن ابنتها ماريان وطفلها كانا قد
غابا عن الانتظار منذ وقت طويل . وراحت تهنه متهمة
لنفسها والطائرة تشق طريقها صاعدة :

- نرى متى نراها مرة أخرى يارب !

وها قد جاء جواب السماء . فهذا النساء القلرس من
امسيات نوفمبر سنة ١٩٤٩ - بعد أحد عشر عاماً - هو
الموعد الذي حدده القدر لذلك اللقاء المتشود . ومع ذلك لم
تأت الزبيث إلى المطار ، وجاء روبرت بمفرده ، لأن زوجته
مشغولة بإحدى حفلات تلك الجمعيات العديدة - بين خيرية

جانبها فتى نحيل يضارعها في الطول : فتى وسيم ذو بشرة زيتونية .. فتى عربى !

وفرّح قلبه بمراى حفيده ، وتطلعت ماريان إلى أعلى ورائه ، فلوحت له بيدها ، وقالت للفتى شيئا ما ، فنظر حيث أشارت له أمه ، ثم لم يلبث بعد لحظة أن ابتسم على استحياء ولوح بيده لجده .

واشتد تزاحم الناس وتداقهم بعد ذلك فابتلعهما ذلك المد ، وانتشبت فترة طويلة قبل أن يبرزوا إلى الیهو الرئيسى للمطار . وخيل إلى ماريان وهى تملأ عينها من أبيها أنه لم يزل على نحافته وانتصاب قامته المهودين في أبناء الإنجليز ، ولم يطرأ عليه تغير يذكر سوى اشتعال رأسه شيئا وزحف السن إلى مهياء . ولكنها قالت له في حماسة وهى تعانقه في شمرة المساعدة باللقاء :

— أنت كما أنت .. لم تتغير قيد أنملة !

وضحك ، وإن لم تخدعه كلماتها . فهى أيضا قد تغيرت . ولم يفته إدراك ذلك رغم نحافتها ورشاقتها . فما هو الشيب قد دب إلى شعرها الداكن ، وهذه خلوط قد ارتسمت هنا وهناك على محياها ، فهى لم تعد تلك المرأة الفينانة في باكورة الثلاثين ، بل امرأة في أواسط الأربعين . ولا عجب ! فأحدى عشرة سنة ليست بالفترة القصيرة في عمر امرأة .. ولا سيما إذا كانت تلك المرأة قد عانت ألوان الويل والعذاب .

وابتسم روبرت ملهى لأنطون ، وخاطبه بالعربية ، قائلا :

— إذن فأنت ابن صديقتى بطرس منصور !

فابتسم الفتى بارتباك ، وقال باستحياء :

— إني أعرف الإنجليزية أيضا . وفى وسعك أن تكلمنى بها .

— أعرف هذا . ولكنى أحب أن نتكلم العربية بين الحين والحين ، فأنى أحب وقع حروفها على أذنى . ولنى أمد طويل لم أسمع أحدا يتحدث بها ..

وسالت ماريان أياها أين أمها ، فقال لها إنها لم تستطع التحلل من ارتباطها بأحدى لجائتها وجميعاتها الكثيرة ، وأنها ستكون في البيت عندما يصلون إلى هناك . وسألها بعد ذلك عن رحلتهم ، فألت ماريان : « لقد كان الجو دافئا جدا في أريحا عندما غادرناها . وكان الطيران مملا » .

— وهل راقى الرحلة أنطون ؟

ونظر كلاهما صوب أنطون الذى قال : « كانت لا بأس بها » ، فقالت ماريان وهى تحاول عيشا أن تخفى تقطيعها بابتسامها :

— لم يكن راعيا في المجيء .

فقال ملهى : « لست ألومه على هذا » ، ثم وضع الرجل يده برفق على كتف الصبي ، وقال :

— لا تكثرث كثيرا لهذا النقى ، فإنه ان بطول إلا اعواما معدودة . أما انا فالتقى بالنسبة لى سيحوم إلى الأبد !

فقاتلت ماريان بلهجة الشكوى :

— إنه لا يرى سببا يدعو لمجيئه إلى هنا على الإطلاق .

ولم يحاول انطون أن يدلى بأى تعليق . وعندئذ قال لمبى أنه استأجر سيارة تحملهم إلى البيت . وخرج ثلاثتهم من مبنى المطار ووقفوا على الرصيف فى انتظار حضور سيارتهم من الموقف . وكانت الرياح باردة ومحملة بالطر ، فارتجف انطون كارتجافه عندما برز من باب الطائرة لأول وهلة ففاجأه الجو البارد بعد دفء الطائرة .

اجل ، كان الجو يتسم بالبرودة فى (رام الله) شتاء ، ولكن ليس إلى هذا الحد . فما أشبه البرد هنا فى لندن بضرب خفى من الرطوبة ، يتسرب تحت سطح الجلد ويتغال حتى العظام . ومن العجيب أن الجو فى صباح هذا اليوم نفسه كان حارا فى أريحا . أما فى عمان عند الظهر فكان شديد الدفء .

واستقلوا سيارتهم أخيرا ، وراح انطون يتطلع من النافذة إلى امتداد الحظائر الواسعة القبيحة الشكل فى أرجاء المطار ، ثم إلى المصانع السابحة فى الأضواء على طول الطريق إلى الضواحي التى تحفل بالفيلات الصغيرة التى تتراجع كل منها عن الطريق العام وراء حاجز صغير من الخضرة !

وكان جده الإنگليزى ينظر إليه ويقول فى نفسه مسرورا : — ياله من فتى اسمر . . تلك السمرة العربية الفاتنة ! وشاعت البهجة فى محيا الصبى بعض الشيء عندما وقع نظره على أول لمحة من مياه نهر النيمز ، وهم يجتازون إحدى قنطرته ، وبدأ له النهر اللندنى وأسمعا جدا بالقياس إلى نهر الأردن . وازداد تهلل وجهه عندما تجلت أمام ناظره الشابات والمروج فى ضوء مقدم السيارة بضاحية (ومبلدن) . فها هنا فراغ ووحشة وخضرة ، وهى أشياء يعرفها جيدا ويأتس إليها .

وسمع صوت جده يقول له :

— لولا الظلام لاستطعت أن ترى عند حافة هذا المنزه لعمام بناء المدرسة التى ستدخلها .

وأرسل انطون بصره يحاول أن يخترق الظلام فى الاتجاه الذى أوما إليه جده ، وأردف لمبى قائلا : « وأنها لمدرسة جيدة ، وستحبها كثيرا » .

وصمت انطون برهة ثم سأل جده :

— أهى المدرسة التى كان أبى يريد أن يُلحقنى بها ؟

— نعم . وقد طلب إلى منذ سنوات أن اسجل أسمك فيها كي احجز لك مكانا . وكان مسرورا جدا لذهابك يوما ما إلى المدرسة التى درست فيها أنا . .

وأسرعت ماريان تقول : « وأنا أيضا راقنتى الفكرة كثيرا » .

واستطرد ملبي :

— وهى مدرسة نهائية . وسيكون فى مقدورك أن تعيش فى البيت معنا . فما نحن أولاء . وهذا الباب الأزرق باب بيتنا .

ودهمش أنطون لصفر حجم بيت جديه . فهو لا يكاد يزيد شيئاً على حجم الأكواخ التى كان يقيم بها الفلاحون فى ضيعة والده باللد ! ورأى على مدخل البيت من الخارج مصباحاً معلقاً وظلة يعرش فوقها نوع من الكرم . واستطاعت عينه أن تميز فى ظلام الحديقة الصغيرة اشجار الورد .

أما امه فصاحت بحبور وهى تترجل من السيارة :

— ياله من بيت صغير عزيز ! لا عجب أن نفتسا به انت وامى ! وهو يطل ايضا على المنتزه العام مباشرة . فكانكما فعلاً وسط الريف ! وها هى ماما !

واقبلت سيدة أنيقة شهباء الشعر تخرق المر بخطوات سريعة ، وتكرر العناق والتقبيل والترحيب على نحو ما حدث فى المطار ، وقبلت الجدة أنطون وضمتها إلى صدرها ضماً شديداً ، وأخذت تصيح به :

— لكم غدوت فارغ الطول ، ولم تكن سوى طفل يدرج على الأرض عندما رايتك فى آخر مرة !

وظلت تحمق فيه بانتشاء أورثه ارتباكاً . وذكره منظرها بمنظر طائر يعرفه ، فعيناهما ثابتتان كعيني الطائر وحركاتها سريعة كحركات الطيور ، وفيها شيء يذكره بالمتقار

وحركته . وعقدت أخيراً ذراعها بذراعها ودخلا البيت ، فداخله إحساس بعدم الارتياح ، لأنه شعر بها وكأنها — على هذه الوتيرة — قد وضعت يدها واستولت عليه !

والواقع أن وجود حفيدة تحت سقفها كان يعنى الشيء الكثير فى نظر الزبيث ملبي . وكانت تعتقد فى قرارة نفسها أن ماريان لو كانت غلاماً لتغير نهج حياتها كثيراً . ولقد كان وابدها الأول غلاماً ، بيد أنه مات فى باكورة طفولته . والطفل الذى تمت أن يملأ الفراغ الذى خلفه السلام النراحل جاء انثى ... وصارت الانثى — ماريان — ابنة أبيها . ولم يكن فى ذلك ضير ، لأن روبرت ملبي رجل متزن ، ولكنه جعل حياتها خاوية . وما أكثر ما منيت به من خيبة الأمل . ولكم حاولت أن تتحمل تلك الصدمات بقلب مؤمن ، ولكن ضعفها كان يقلب عليها ، ويرين عليها من ذلك ألم وشعور بالضيق والغبن .

لقد خيل إليها فى وقت ما أنها أقدمت على حياة كلها رومانسية ومغامرة ، حين تزوجت من روبرت ملبي وضمت معه إلى الأراضى المقدسة كى تكون عوناً له فى إدارة مدرسة للفلين العرب المكفوفين ... ولقد أحببت كثيراً البيت الذى سكنه فى يافا ، ولكنها لم تحب يافا نفسها . وكانت ذروة أملها فى الحياة بفلسطين أن تنتقل يوماً ما إلى القدس . وكان شعورها الدينى المتحمس يجعلها تنظر حوله وهيام إلى كل شجرة زيتون تراها على جانب النل ، على أهل أن تكون عين السيد المسيح قد وقعت على تلك الشجرة ذاتها فى مدة

حياته هناك . ولكن روبرت ملبي كان يهدم لها آمالها تلك بقوله أن ذلك غير مرجح ، لأن أشجار الزيتون لا تنمو كل تلك القرون العشرين !

وكانت تقول في نفسها أن روبرت ملبي رقيق الحاشية جدا ، طيب القلب بمعنى الكلمة ، ومع هذا ففي مقدوره أحيانا أن يكون قاسيا جارحا . بل إنه كان في الواقع أول صدمة وأول خيبة أمل منيت بها . فهو ابن رجل من رجال الدين ، وفي أسرته كثير من رجال الإرساليات المنتشرين في العالم ، ولكنه لم يكن صادق الإيمان بالمسيحية . لأن اطلاعه العلمي جعله ينظر نظرة شك إلى كثير من المواقف التي يسميها الناس أماكن مقدسة في فلسطين ، وقد بلغ به شكه أنه نعت الكثير من تلك المعتقدات بأنها « هراء » . أما هي فكانت على العكس منه ، توافقه للانتقال إلى القدس أو بيت لحم ، حيث المزارات التي يقدسها المسيحيون المخلصون . لما روبرت ، فكان يحب (يافا) ويفضلها على كل مدينة أخرى في فلسطين ، لا لشيء إلا لأنها مدينة إسلامية خالصة . أو على حد تعبيره هو لأنها مدينة عربية خالصة .

وإنها لتعتقد في قرارة نفسها انه لولا إقامتهما في مدينة يافا لما انغمس روبرت على هذا النحو في الحركة الوطنية العربية بحماسة بالغة مسافرة ، ولما ترتب على ذلك استعداؤهما إلى لندن . وكذلك لولا إقامتهما في يافا لما أتبع لابنتهما الوحيدة أن تلتقي ببطرس منصور !

وليس معنى هذا أن الزبيث كانت تضرع شعورا عداوتها نحو بطرس منصور ، فهو في نظرها رجل ظريف ومسيحي لا غبار عليه سوى أنه أرثوذكسي ، في حين أن آل ملبي من غلاة الانجليكان . ثم أن بطرس منصور في سن والد ماريان . وأنه ابن المخرج بلاشك أن يكون زوج البنات في سن جهاء ! وقد أصر هذا الزوج العربي المسيحي على أن يتم عقد القران في الكنيسة الأرثوذكسية . وكذلك تمت معمودية أنطون في تلك الكنيسة أيضا ، وهذه كلها صدقات أورثت الزبيث خيبة الأمل .

وجاءت بعد ذلك خيبة أبل لا شك فيها أيضا ، وهي العودة الاضطرابية ، والإقامة في أنطرا مرة أخرى ، ومعاناة برودة الشتاء القاسية هناك . هذا بالإضافة إلى معركة بريطانيا المحلطة للأعصاب ، ليل نهار . وازداد شعور الزبيث بخيبة الأمل حينما رفض روبرت أن يصحبها إلى الكنيسة يوم الأحد ، كما رفض في أيام الأسبوع أن يبدى اهتماما بنشاطها الخيري والاجتماعي .

ولم يكن من عادة الزبيث أن تشكو أو تتفقد ، لأنها ربيت على تقبل الأمر الواقع في صبر وجلد . ثم أن روبرت رجل طيب في أعماق سريرته ، وابنتهما الوحيدة ماريان شبت ذكية كئيها وطيبة القلب مثله . وكانت مثله أيضا في محبتها للعرب . ولئن كانت أقرب بعواطفها إلى أبيها منها إلى أمها فتلك هي سنة الطبيعة التي لا حيلة فيها . كما أن إرادة الله هي التي شاعت أن تحرم الزبيث من الولد الذي كان حريبا أن

يتعلق قلبه بها . وليس لامرأة مؤمنة مثلها أن تناقض إرادة الله . ولذا حاولت على الدوام الا تسمح للمرارة بالتسرب إلى أغوار سريرتها ، وأن تجعل حياتها نافعة لنفسها وللناس . وأن تنظر دائما بعين الرضى والشكر إلى النعم الكثيرة التى أنقاضها الله عليها .

ولم تقمالك الزبيث نفسها - عندها وصلت انبياء وفاة بطرس متصور فجأة - من الشعور شعورا مختلطا مزدوجا متناقضا : بالرثاء لـ ماريان ، وبالأمل المشبوب فى أن تسعد هى اخيرا بعودة وحيدتها إلى إنجلترا مع الغلام ، غيتسى لها أن تعرف حفيدها وأن تجد فيه بديلا من ابنها الذى حرمت منه قبل الأوان .

وأبرق روبرت ثم كتب تفصيلا بالبريد يستحث ابنته على الحضور إلى إنجلترا . وردت عليه ماريان بان ذلك هو رايها أيضا ، وأنها ستأتى ومعهما أنطون بمجرد الفراغ من إجراءات نقل ملكية ضيعة أريحا إلى خليل داود ، وتساوية جميع التفصيلات المترتبة على حصر التركة . ولم تكن الزبيث تعلق أبلا كبيرا على جو التقارب الحميم بينها وبين ماريان . بل كانت تتوقع أن يكون التقاؤهما أشبه بالنقاء الغريب . أما تعويلها كله فكان على ذلك الحفيد الصغير أنطون ، وعلى أن تذهب بينها وبينه صلة مودة تتجاوز كل ما كان بينها وبين ابنتها . وأنها لترى فيما حولها من الديوت أطفالا كثيرين يرتبطون بأجدادهم أكثر من ارتباطهم بآبائهم وأمهاتهم . ولذا كان شوق الزبيث إلى حفيدها العربى أشبهه بحنين

الاحشاء . وهى لا تجد غضاضة فى أن يكون حفيدها عربيا . وإن كانت تؤمل فى قرارة نفسها أن يأتى اليوم الذى تختفى فيه تلك اللحات العربية لتحل محلها لحات مكتسبة من الإقامة المستمرة فى جو انجلترا . سيما بعد أن ينخرط أنطون فى مسلك المدرسة العامة . وسيساعده على ذلك بلا شك ما ورثه عن أمه من عيني زرقاوين . وحاولت أن تغالط نفسها فى لون بشرته الزيتونى ، وأمتلاء شفتيه ، وقوة أنفه ، ذلك الأنف الذى ورثه عن آل منصور .

إنه الحب من أول نظرة . فقد كان تأثير الغلام على جدته صاعقا ، بوسامته وقامته . وأتته لحفيد تقدر به أى جدة . وقد صار غاية أملها الآن أن يشعر الغلام لها بشئ ولو قليل من المعزة والمودة ، فيعوضها هذا القليل عن كثير جدا مما تشعر أنها حرمت منه !

أما ماريان فقد وجدت - بعد تلك الغيبة الطويلة جدا من انجلترا - أن من العسير عليها أن تتأقلم بالحياة الإنجليزية والمانخ الإنجليزي ، فجعلت ترتجف ارتجافا غير قليل فى أيام الخريف الرطبة ، مع أن والديها ظلا يؤكدان لها أن الجو فى خريف تلك السنة معتدل جدا . وكانت أمها تقول عادة :

- لندن ليست بطبيعة الحال مثل أريحا ! ولكنها ليست أشد برودة من رام الله أو القدس فى مثل هذا الأوان من العام .

ولم تكن هناك جدوى من تذكيرها بأن البرد في رانم الله أو المقدس برد جبلى جاف يبعث العافية في البدن ، أما هذا البرد اللندنى فترطب يتسلل إلى التخاع . وكانت ناصح ابنتها على الدوام بالخروج للسير السريع الناشط في المنزه العلم ، باعتبار ذلك السير هو الوسيلة الفعالة لتنشيط الدورة الدموية والتغلب على آثار البرد القارس .

ولم تكن الزيت تجهل ان صدمة ماريان بوفاة بطرس من اشد العوامل تأثيرا في هبوط روحها المعنوية وفسف مقاومتها للحالة الجوية ، فكانت تردف : « ولكنك لن تلبثي ان تغلبى على هذه الصدمة » فمن راحة الله بنا جميعا اننا نحن البشر نتغلب على كل متاعبنا بفعل الزمن .

وكانت لهجة الام رقيقة وصادرة عن إحساس صادق بهسية ابنتها ، ولكن التعبير لم يكن يوائى الزيت بسهولة ، لانها فقدت منذ زمن طويل القدرة على التعبير عن عواطفها وعطفها وإعزازها ، لأن روبرت كان قد قتل ذلك كله لديها منذ سنوات طوال !

وكانت ماريان تعرف ما تضمره لها ابها من العطف ، ولكنها في الوقت نفسه تدرك انه من المستحيل على تلك الام ان تفهم إحساسها ، لانها لم تجرب قط في حياتها الحب المشوب ، ولم ينزل بساحتها ذلك الحرمان الموجه الذى لا يستطيع إحداثه في حياة المرء إلا الموت . أجل إن فقدان ذلك الطفل - الذى مات في الأسابيع الأولى من عمره - ربما كان موجعا لقلب الزيت ، ولكنه لا يمكن ان يقارن بذلك

الفقدان الفاجع لشخص كامل النمو قريب إلى النفس بعد معايشة دامت لهذا طويلا من الزمن .

إن أربعة عشر عاما من الحياة الزوجية يمكن أن تعتبر في نظر بعض الناس فترة قصيرة . والحقيقة انه لولا النكبة الفلسطينية لامتدت هذه الحياة عشر سنوات أخرى على الأقل . وليس صحيحا على الإطلاق أن كل شيء يمكن أن تذهب الأيام المتوالية بلذته ومرارته . فبطرس لم تستطع الأيام المتوالية أن تنسيه بيته المفصوب ووطنه المسلوب وكرامته القومية والإنسانية التى داسها اليهود بالاقدام .

ولم يستطع بطرس أن ينسى طعم الهزيمة ، وطعم المهانة ، وضيق الشخصية القومية . ولم يستطع أن ينسى - بمرور الزمن - انه فلسطينى ، ولم يستطع في أى وقت من الأوقات ان يدعو نفسه أردنيا . وفي النهاية غلبه القهر على أمره ، ومات كسير القلب محطم الروح . وكان شقيقه مريد على حق عندما قال وهو يذرف الدموع بجانب جثمانه :

— لقد قتلتك اليهود يا أخى ، قتلك بالغم والتشتيت وعار الهزيمة !

أجل ، لم يكن من اليسير على ماريان - في جو الخريف الإنجليزي القاسى - أن تتألم جسدا وروحا وهى تتنشى في منزله (ومبلدن) مع أبيها أو مع انطون أو بمفردها تماما . كانت الذكريات الحزينة تهاجمها على الدوام ، فلا بد لها من العثور على شيء تشغل به وقتها ، كي تنسى خيالات البريقال

وأشجار السرو وشمس أريحا الحارة ، مثلما نسيت (اللد) من قبل ... ينبغي بأى شكل من الأشكال أن تتعلم كيف تعيش بدون بطرس . بطرس الذى كان لها زوجا وأبا وحبيباً وصديقاً مدى أربعة عشر عاماً . بطرس الذى عاشت في كتفه ، والذى تعلقت به في شغف لا مزيد عليه وهى شابة ، ثم تعلمت بمرور الزمن أن تتعلق به تعلق الشكر وعرفان الجميل وهى في أواسط العمر .

إن عليها الآن أن تعلم نفسها بنفسها كيف تعيش في أعمال وحدها ، تلك الوحدة الحميمة التى لا يستطيع حتى أبوها ، صديق بطرس وشبيهه في خلاقه ، أن يتغلغل إلى قراتها .

ذلك كله ثقيل الوقع على نفسها ، مثلما كان ثقيل الوقع على نفس أنطون أن يفقد أباه الذى يعتز به ويحبه ، وأن يجد نفسه - وهو العربى المتحمس لعروبته - رهين المنفى في إنجلترا ، مهما تحدثوا إليه عن جمالها وما تقدمه له من فرص التعليم والثقيف .

ستظل إنجلترا - لأنطون ولأمه على السواء - أرض المنفى ، ماداموا بعيدين عن الوطن الحقيقى .. عن فلسطين !

كانت السنة الأولى بطولها - بالنسبة لأنطون - فترة من الحيرة ، وانتجارب الجيدة ، والمناظر غير المسالوفة . وكثيراً ما دهمته هذه الأحوال الطارئة وأفتدته زماله ، فلم يكن يجد ملاذاً له سوى الحديث بينه وبين نفسه ، متوجهاً بنجواه إلى صديقه وليد . ومع أنه كان يسطر إلى وليد صفحات لا تحصى في ذهنه ، إلا أن كل محاولة لتدوين جزء ولو يسير من هذه الخواطر على الورق كان أقوى من طاقة احتماله ، فلم يستطع أن يرسل إلى صاحبه سوى بطاقات بريد ملونة عليها رسوم تمثل برج لندن ، وميدان الطرف الأغر بحمامه المشهورة ، وسيرك بيكاديللى ، ومتنزه (ومبلدن) بطاهسونة الهواء المشهورة ، والكنيسة التى يذهب إليها يوم الأحد مع جدته . وتطورت هذه البطاقات فيما بعد فصارت إلى وليد نسخاً من الصور المشهورة التى يحفل بها المتحف الأهلى للفنون .

وكان وليد يدرس كل هذه البطاقات البريدية بعناية واهتمام ، ويحتفظ بها بين صفحات كتبه وكراساته مسروراً بها ، ولكنه لم يكتب إلى صديقه سطرًا واحدًا ، مع أن ذهنه أيضاً كان حائلاً بالخواطر والأحاديث التى يبثها صاحبه ، في نجوة من الناس ، كلما خلا إلى نفسه !

ولم يكن مكان أنطون في المدرسة مهيناً لاستقباله قبل الفصل الدراسى الثانى في شهر يناير . وفي الشهور التى سبقت ذلك الموعد بذلت ماريان قصارى جهدها كي تعرفه

معالم لندن ، التي بدت لانطون متراصة الأرجاء بصورة لا يصدقها العقل ، مكانها هي جملة مدن كبيرة تصب في موضع واحد بحيث يتداخل بعضها في بعض .

وكان يحيل إليه - حين ينظر إلى لندن من فوق قمة إحدى السيارات العامة - أنها تمتد امتدادا لا متناها ، كابتداء الصحراء ، بيد أنها والصحراء على طرفي نسيان ، تصح بالحياة والحركة والضوضاء ، والصحراء برزخ عليها الصمت والخلا . وكانت أكبر مدينة رآها من قبل هي اللد ، التي لا يزيد عدد سكانها على خمسة عشر ألفا . أما رام الله فلم يشهد أكبر من قريه غيره إلا بمقدار غير محسوس . وأما 'رمحا' ، زيد في حجم سكانها على شارع رئيسي واحد .

وأما القدس القديمة ، مارقتها التي سوح بالمسرة والخبز و السلاع ، مشي آخر ، ولذتها لا تحصى في حركة مرورها ، الدائبة مدببة لندن ، بها فيها من سيارات حاسبه وسيارات اجرة وسيارات عامة صحبه غالبه حمراء . والباقى جميعا في هذه العاصمة العجيبة يرتدون الثياب الفاتسه . بل إن الاسيه دانه كانت قائمه ، والسمااء من فوق الداس والابنية حاسبه اذبح . والسيارات الكبيره مغلطها امره به . ولكن عددها بدا له قليلا جدا بالمقاييس إلى السيارات الإنجليزية الكثيره العدد ، الصغيره الحجم .

وقد أثار اهتمامه كوبري (برج لندن) ، وكان من حسن حظه أن يراهم يفتحون ذلك الكوبري المعلق لتمر من حبه سفينة كبيرة عالیه . ولعلت نظره انبساط بحر النهر ، وشدة قدرته ، فهو لا يستخدم للري أو الثرب بل بأى أهميته

المكرى من تلك السم السمحة التي تمحره تنمته من جميع أرجاء العالم .

ومررت رماة انطون سرح لندن اثرا في نفسه ، فاشيرى بحة من بطاقات البريد التي تصور نفاثس ذلك المرح لبرسلها ساعا إلى ولده . أما كنيسته القدسيه بولس مذكركه من بعيد بقعة الصحرة في القدس . وذات يوم ، وهو متجه إلى قلب لندن بالقطار ، لمح من النافذه مسجدا هو أحد مسجدي لندن الكبيرين ، وقد جعله سطر المسجد يرداد إيسا بالمدينة الكبيرة ، فعبها شيء من وطنه الأصلي . وقد ذكر له حديثه أيضا أن بها كنيسة أرثوذكسية . ومع هذا ظل حسبه إلى على طقس أقوى من مغريات المدينة الكرى على ادوام . ودلت رائحة « العلال » تداعب أنفه ، وتذكره بالحواسيت الصغيرة المنشة في شوارع وطنه وحواريه ، كلما أرخى المسماة سدوله .

حتى أريحا بجوها الحار وصحرائها المحرقة وهرها البيت ، كانت تداعب محبته فيشدد حنينه إليها ، ويمثل به أبوه حالما في الشرفه ، واضف كفيه فوق مضض عصابه الغنى ، بك العصا التي كانت الشيء الوحيد الباقي له من ثروته الكبيرة في اللد . ولكن انطون لم يكن يبدد اللد بمثل ذلك الحنين ، لأنه لا يستطيع أن يتفكرها إلا محدلة أشد اختلاط وأعنف بالعرب والمخاوف . ولذا يحس في أعماق نفسه بأن العودة إلى اللد في حكم المستحيل ، وبشر جده بقول

له إن المسححيل كلمة لا معنى لها ، و نرى الفلسطينين
لا بد أن يهوب يوما ما إلى أهل فلسطين .

قبل دخول المدرسة صمعة أسابيع ، شرع انصوب في العمل
تحت إشراف مؤدب خاص ، كي يتسنى له الانتظام في المدرسة
الجديدة ابتداء من شهر سيار . وكان في كل صباح يعبر
المسرة الصام مع حذو إبي بيت كبير عتق بسم عبدنا من
المكومين . وكان مريق منهم مصابا بالصمم مذنا . فهو انه
حده الآن ، وقد فطنت به الأس ، أن يساعد في الترمية عن
أولئك الناس والحديث إليهم . وقد تعلم أطول منه كيف
يحاطب الصم بالمسبات يدويه مرهقه . وكثيرا ما - ورت
روبرت مبي حفيده عن المدرسة التي كان يديرها في يافا ،
وكانت تضم المكومين من المسلمين والمسيحيين واليهود ، على
تقدم المساواة .

وفي تلك النزاهات أيضا كان روبرت يحدث حفيده عن
الحركات الوطنية العربية في فلسطين قبل الحرب العالمية
الثانية ، وكيف نكت الإنجليز وعودهم للعرب بن يمحوم
الاستقلال . عندما حاربوا الأتراك في مره الحرب العالمية
الأولى ، وكيف أن قسه إبحترا مع العرب هي قسه الحمانه
واحدية على طول الخط . فأيق أطول أن حفيده ماساد
شعنه الفلسطيني - التي ادب إلى قتل أمسه وتسل مئات
الألوف من مواطنيه - إنما ترجع اسبابها الحقيقية إلى ذلك
الموقف ابعاد ابدى ومنه الحكام الإنجليز من العرب عموم ،
ومن الفلسطينين على وجه الخصوص .

ولكم نعلقت روح ابطون بلك النزاهات مع حده - مما أئد
ما كان يفكره بأبيه - فأزاد شغفا بذلك العجوز المستقيم
النفس الريه التفكير . ولا عجب إذن أن يكون شعوره نحو
جدته أقل حرارة من شعوره نحو حده بكثير . إنه يأس إلى
صحتها - ما في ذلك شك - ولكن ذلك لانس لانس صدر
عن تعلق حقيقي ، بل عن عدم مبالاة ! فهو يذهب معها صباح
كل يوم أحد إلى الكنيسة ، ويحد راحة نفسية في حو تلك
الكنيسة الإنجليرية ، وهو أقل عتمة سكر من جو الكنيسة
الأرثوذكسية الصغيرة في أريحا . وقد ادعته في بداية الأمر
أن يجد الرجال والنساء يجلسون مجاورين ، لأن لانس
في لندن لا يعرفون الفصل بين الجنسين ، وكان يمسسه
تحت بين العينة والعينة إلى سماع الألفاظ العربية التي تردد
في كنيسة أريحا ، عندما يلو القسيس المسألة أو يردد
الشامسه التراتيل . ولكنه لم يكن يحدث أحدا بحثيه إلى
وطنه . حتى ولا جده الحبيب الذي يحب ذلك الوطن . فقد
أبقى لنفسه حظه المشترك مع وليد : حلم طريق بحر سبيع ،
إلى أن يحس الوقت ، فتشبه فترة هذا النفي ويهود إلى تلك
الأرض التي كانت يوما ما جزءا من فلسطين !

وأخيرا ، في شهر ديسمبر كتب إلى وليد ، يقول :

- يا عزيزي وليد ، أرجو أن تكون قد وصيتك المعلقة
البريدية التي أرسلتها إليك . وبؤسفي أني لم أستطع
إرسال خطاب إليك قبل هذا ، لأنني كنت محتلط لتفكير سبب

الحياة الجديدة من جميع الوجوه التي تحيط بي هنا . لقد
أحدثت بمعاملة باظن مدرسة « كلية الملك » التي مستطلم في
صنعها في ماير القدم ، وكان الرجل لطيفا جدا معي .
وحسن الظن بي ، ولكنني سأؤدى امتحانا تحريريا يسمونه
امتحان القبول في هذا الشهر . ماذا يكتب لى السجح فيه يخدم
للأمم انسموى امام لحنه . وهذا هو الطعام المسموع مع جميع
المفتيين للأسحاق بالمدرسة . وحدى واثق اننى سأنجح .
وهو شخصيا كان تلميذا بهذه المدرسة نفسها في سنة ١٩٠٥ .
وانا لا اعتقد ان الدراسات ستكون محببة كثيرا عن الدراسة
بمدرسة الأصدقاء ، ولكنني سأمضطر في الغالب للحد ليل
بهار . مدة ثلاثة أشهر على الأقل ، تحت إشراف مدرس
جديد . وبدا قد لا أعجب إيك مرة أخرى قبل معنى مدة طويلة .
وبكى أرجو أن تثق ناسي أفكر بك طول الوقت ، وبما كنا
نعمله معا ونحدث فيه ونرسم خطاه . وأرجو أن تكون
أحوالك على ما يرام من جميع الوجوه . وفريسا إن شاء الله
سأعود ونستأنف جولتنا معا . تحياتي إلى فؤاد .

وقد سعد ولدت كثيرا يتلقى هذا الخطاب وقراه عدة مرات .
في الحصل ، وفي الغباء ، وفي بيت عمه بالليل . ولكنه لم
يكتب ردًا عليه لأن الرد على الرسائل لم يكن من عاداته .
وهو يؤكد أن صديقه لا ينتظر منه ردًا . ويوما ما سيجتمعان
بحسبهما وببعضهما الحطة التي رسمها عمه بنير . أما الآن
فهى فترة انتظار وترقب واستعداد .

وفي عيد الميلاد تلقى وليد بطاقة يريد تعيد بجاح أنطون
في الامتحان التحريري سوقي . ورد وليد عليه بطاقة ملونة

عليها صورة فيه ابصهرة المقدسة ، كتب على ظهرها حياته
ونحيات أصحله .

ومرت فترة طويلة أخرى قبل أن يكتب أنطون إلى وليد .
وكتب رسالته هذه المرة طبعه بشعور من يأس ، من انفس ،
ومن قسوة شقاء إنجليترا ، بحيث أصيب أنطون بالبرد ولم
يعارقه ارجحه التي لم تمنع في إيشتهب موافد المحم في حجرة
خلوس جده الصغيرة . وحديثه بالتفصيل عن مدرسة الحاس
« جبرالد حور » انسى أحبب شلل الأطفال وهو في السنة
الأخيرة بجامعة اكسفورد ، عاضلعب دراسية وحسار بمقابل
في أرجاء أسب والحدثته على مبدد ذي عجالات . رئيسي وقته
كله في المطالعة ، ملدته مكتبه صحبه . وأظهر مدرس حور
اهتماما كبيرا بالشرق الأوسط وأسلاد العربية بوجه خاص .
واندى علما كبيرا على العيسلوبيين . وكان سوقي مثل مرفسه
ان مرور تلك البلاد مسجرا بحرجه ، ورش خاربه ، رفسه ممدت
على ذلك حب . إلا أنه وجد في صلقه بأنطون بمصهور فرفسه
جلسه للحدث عن فلسطين وأحوال أهلها .

ولكم اميلات نفس مسمر حور نابع والاستيكاك عندما
وصف له أنطون المسيرة الزهية من الد إلى رم انه . واحقق
وجه الرحيل الإنجليزي لمثف بالحب والسند على شك
القوى الشريفة التي جعلت صد هذا الشعب المسام
البريء .

وشرح له أنطون بعد ذلك رأى صديقه وليد اندى هاجرت
أسرته من بئر سبع ، وكيف أنه ، بقدرة الله ، سيطيبن على

استرداد أوطانهم وديارهم إذا هم نظّموا صفوفهم أحسن تنظيم . وكيف أن بعض كبار السن يرون ذلك أمرا شبيها مستحيل . فقال له مستر « جونز » :

— وما وجه استحالة يا بني ؟ لكم شهد التاريخ من إمبراطوريات قامت على البطش والقوة الفاشية ، ثم هزمتها شعوب عزلاء إلا من قوة الإيمان وسلاح الإصرار والمضحية . ولقد رأينا بأعيننا هذه الإمبراطورية البريطانية تتلاشى بعد قاء وشموح ، وكانت الشمس لا تعرب عن أركانها — وإن كان اليهود الوطنيون الطرفاء يقولون إن الشمس لم تكن تعرب عن الإمبراطورية لأن الله لا يثق بالإنجليز لو أسدل عليهم ستار الليل ! — ومع هذا غربت شمس تلك الإمبراطورية العتيقة ، ومحررت الشعوب التي كانت ترسف في قبورها . والرايح الثالث — رايح هتلر — الذي كان « الفوهرر » يقدر له القضاء ألف سنة على الأقل ، أين هو الآن ؟ لقد انتهى وصار اثرا بعد عين . فكيف يداخل أحد الشك في زوال دوله ملقحه كإسرائيل ، بحيث يتحرر فلسطين ؟ إن الظلم يقصى على نفسه ، والشر يأكل بعضه بعضا ، لأن عوامل الفساد والقضاء في صميم تكوينه . هذا هو حكم التاريخ ، وهذا هو تياره المحتمى الذي لا محيص عنه .

ولم يسطر انطون هذه الأحاديث على الورق ، ولم يبعث بها في رسائل إلى وليد ، ولكنه سجلها في قلبه ، وأدحرها ليوم يلتقى فيه بصاحبه على أرض الوطن . للقيام بعمل مشترك .

ولن ننسى أنطون — ما عاش — حادثا وقع له في أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة . فقد أخذ حذاء إلى بضعة بيوت إنجليزية صديقه في تلك الفترة ، ليشهد حينا دبرا من الحياة الاجتماعية الإنجليزية . وكان الناس في تلك البيوت الصغيرة يدور اهتماما مهدما به ، ويقدمون له ثروة حلوة ، ويسألونه عن دراسه وعن بلاده . وهل بها مدارس إندايونية على مستوى حسن ، ومبهم من كان يطلب إليه أن يتحدث بالعربية كي يسمح تلك اللغة الغريبة !

وفي إحدى تلك السهرات أقبلت عليه امرأة بديهة ، حمراء الوجه ، يملأ التمشي الكبير محياها ، وقالت له :

— لقد سمعت أنك من اللاجئين . ولما أردت أن أشد على ذلك محيبة ، لأنني كنت دائما ذات ميول موالية لليهود ، وانتهر كل فرصة لتدفاع عنهم وتأييد حقوقهم . فقد كنت جده أمي يهودية .

وارتك انطون أمام انتسابه اليه وأدرك أساس الأمر عليها ، فقال :

— أنا آسف يا سيديتي . . . يعني . . . أنا لست يهوديا . بل مسيحي .

وإذا بلاشراق والتهلل يحتفيان من وجه المرأة البديهة ، كأنها ابتلعته الأرض فجأة ، وسأله بحدة :

— لست لأجنا . . ؟

— بلى . نحن لاجئون ، أعني أصرني لأجنا . . ولكننا لاجئون فلسطينيون . فقد كان لي فلسطيني . . . يا !

مادا يقول ١؟ عربي ٢؟

وراحت المرأة تنظر إليه بامتعاض وقزع ، كأنها هو قد قال لها إنه من المصابين بالحذام مثلا .. ! ثم حذبت ذراع رجل كان يتحدث بقربها إلى فتاة ، وقالت له :

- هل سمعت ما قاله هذا العتي ؟ إنه يقول إنه عربي ؟!

وراح الرجل ينقل بصره بينها وبين أنطون ، ثم قال :

- وإنه لكذلك فعلا . فهو نصف عربي على الأقل . إنه حفيد روبرت ملى ، وماريان ملى كانت متروحة من ملسحيسى عربي .

وانقسم الرجل ابسمامة ودينه للغلام ثم التفت إلى النساء التي كان يتحدث إليها ، واسهر انطون هذه المرحلة وانتعد عن المرأة التي طبت سحوق فيه باستكثار وكأنها رأت عمر ، ! ولما روى انطون هذا الحادث لجدته انقسم الرجل الطيب بك الاتسمامة التي كانت تذكره دائما باستسمامة ابنه ، وقال له :

- إنك ستلقى ناسي الكثير من هذا هنا . فسواد السميت امريطاني سم المثقف ، دل سمسم عن اللاعنس التي ود سمسد سمسمات طوبياه نذل الدر ، العالمية . أما اللاعنون العرب فلم سمسم الشمس ، الإنذارى عنهم شيئا تقريبا . فإذا قيل امامهم « هذا لاهي » فقلوا انه لاهي ، يهودي ، وليس لاحنا من العدوان اليهودي !

وفي عطلة عيد الفصح كذب أنطون خطابا مطولا آخر إلى صديقه وليد بخبره بانتظامه في المدرسة ، ودخوله التدريب العسكري كي يتعلم التصويب بالبنقية ، وكيفية استخدام



وراحت المرأة تنظر إليه بامتعاض وقزع ، كأنها هو قد قال لها إنه من المصابين بالحذام مثلا ..

- ٣ -

كان الإعداد السائد - لدى حدى أنطون ووالدته وأساتذته في المدرسة - أنه « ناعلم » و « تكيف » بالجو الإنجليزي والحياء الإنجليزية على أنهم وجه ممكن . ولكن « جيرالد جونز » وحده - بما كان يعرف عن التألم والتكيف بصورة علمية وعملية - هو الذى خاض يشك كثيرا حدا في حقيقة ذلك المكيف الرائع المزعوم .

لقد كان أنطون في طاهره أمره مسمى « انشاسيا » غير منطوق على نفسه ، يشارك في النشاط المدرسى ولا سيب في ملأب المدرسة وقرقتها الرياضية بشئى أنواعها ، ويسهم في التدريب العسكرية شعف كبير وسدل جيدا كبيرا في مناوراته ومباراته الشاقة ، ويحرص على الانسجام والدمائة ويقتل الفئات اللادعة بصدر رحب . وكانت معظم نكاته رفاقه في المدرسة ينصب على « الشيوخ » و « الحريم » و حياة القليلة في الصحراء !

ولكن إلى جانب هذا لم يكن أنطون يعتبر تلك الروح الاجتماعية الشائعة بين الرملاء ذات صلة ما بالصدائفة الخاصة . فالكل صحاب له ورفاق مرحون ، وهو مرح ودمث مع الجميع ، ولكن ليس له صديق بالمعنى الخاص لتلك الكلمة . وكثيرا ما كان يذهب إلى رحلات ونزهات في نادى التجديف بالمدرسة . أو في نادى الطيران صباح يوم الأحد ، أو يزور رميلا في بيته يكون قد أئدى نحوه فهم خاص ، وهو من الطلاب الفقراء الذين يتعلمون بالمجان لتفوقهم - على خلاف

الدافع الرشاشة المحتملة ، واشتراكه في سدق احراق الضاحية . وحديثه أيضا عن مدرسه الخاص الذى اسبب مده عمله معه ، ولكنه يزوره كصديق في عطلة الأسبوع . وان مستر جونز يقترح عليه أن يعمل بعد تخرجه في وكالة إند الملاحظين التى انشأتها الأمم المتحدة . وقد وافق حده على هذه امكره ورتب مع باطر المدرسة إعداده للاندفاع بمدرسه العلوم الاقتصادية التابعة لجامعة لندن لاحتمال مهلا على دبلوم في العلوم الاجتماعية . .

وفي هذه الرسالة أيضا ترددت شكوى أنطون من جهل زملائه بالمدرسة بأحوال فلسطين ، ومعلمهم بأبوا مستشرق كنية فلسطينى مرادفه لكلية يهودى ، ويعجوز لوجود عرب في فلسطين ! وكل ذلك بطبيعة الحال نتيجة لادعاء اليهودية المتلاحقة . .

وأخير أنطون صديقه بأن روح الزملاء قد بدأت في التمسك ببطء ، وأنه ساهل في التغلب على أمكرهم الموروثة ضد العرب بمرور الوقت . وأن امه قد التحقت بعمل منذ بداية العام في دار النشر بيم سمور الشرق الأوسط ، وبقيم يسكن في وسط لندن ، ولا ناسى إلى بيت أويها إلا في عطلة الأسبوع . وأنه أحبا يذهب إلى مسكنها في عطلة الأسبوع ليقوما معا باكتشاف مجاهل لندن . .

ولم ييس أنطون في انشايه أن يؤكد له موافق الصدائفة . وأن اليوم أت لا ريب فيه للعمل معا في ميدان الكماح الوطنى . بعد أن تنتهى فترة هذا « المنفى » .

الأرض إلى السقف بالكعب ، في ذلك البيت السكير المصيح
 الشكل .. وبحبك تلك المعاملة السمحة التي يعامل بها أساده
 السابق ، وهي معاملة الند للند ، التي تخفف عن كاهله
 الشعور الذي يعمد الصبح ، ذلك الشعور الذي كبر
 ما عانى منه حتى وهو في صحبة ولید بشخصيته الطاعية .
 بل إنه مع حوزر يستطيع أن يكون صاحب اليد العليا .
 لأنه يتحدث إليه عن فلسطين وأحوالها ، وبحبك على أسنانه
 حوزر التي يوحىها إليه بطريقة تشمره بأنه محضر همام
 للمعركة ، وما أحب ذلك إلى نفس أنطون بعد ساعات الدرس
 المصولة التي يلقى عليها المعلومات من أسادة مدروية جاهلا
 على الدوام ، ويشعر أمامهم معلا منه جاهل ، وشباب ما من
 هذا الشعور . وذلك الشعور الذي يوحى إليه حوزر وهو
 يصفى لإجاباته في تقدير واهتمام .

وكذلك دامت مسر حوزر - والدة حيرالد حوزر الأملة -
 معاملة مدروية وكبيرة رجل مدحج . وتسلمه رأيه في بعض نوابع
 المصابيح الانجر الذي يشهد أمامهم أحيانا ، مثل « السير
 حوزر » المثل والمخرج العقري .. وهو إحساس لا يوحى
 إليه حديثه ولا والده ، فلا يحب إذا التي نفسه على سحيفه ،
 واستمتع بشعور نمو شخصيته لم يتوفر له في دنته ولا في
 مدرسته .

إنه في مدرسته مطالب دائما بالتظاهر بأسرور والمرح
 وسعة الصدر أمام المضايقات والنكات اللاذعة أو السمجة ،
 حتى لا يقال عنه إنه « انطواني » . فهو من خوف الانطوائية

(٣٣ - الطريق إلى بحر سبع ج ٢)

المستوى السائد بين التلاميذ وكلهم من أبناء الميسورين -
 ويتناول لديه « الشاي الكبير » . وفي بعض الأحيان كان يزور
 بيت زميل آخر قريب من بيت حده لمشاهد التلفزيون ، لأن
 حده لم يفتن ذلك أجهزة المتكر . وكان اسم هذا الصديق
 « مايكل بندي » . وأحيانا كان يذهب معه لمشاهدة أحد الأعلام
 « العجالة » - على حد تعبير مايكل - في إحدى دور السينما
 القريبة من البيت ، ومعظم هذه الأعلام « الحصرة » دور حول
 الحرب والأممات . ولم يكن هذه الموضوعات تعني أنطون
 كثيرا ، ولكنه كان يذهب مجاملة لزميله ، ولأن الموافقة أسهل
 عليه من الرضا أو الاعتراض .

أما الأشياء المحبة إليه فما هي التشره سيرا على الأقدام
 مع حده في المسيرة العام الكبير ، أو السير بمدروية في العراء
 وهو يرسل حواطره إلى بعيد ، حيث تصحب « ود » في رحلات
 ذهبية ووطنية ، ويفكر في أحلامها التي يحس أيضا أدق
 وأقرب واقعه من هذا الحاضر الذي يعيش معه مدحا ، وأما
 وقالها .. وينبو تلك الزهات في المكاه والإسار رهايه يوم
 الأحد مع أمه وإربانتها للمناصب الضيقة ، وأحاديث الدسمه
 المثيرة للدمع والعب مع معلمه السابق المصاب تشلل الأطفال
 « جيرالد جونز » .

ولم يدر سحاده طليعا أن « جيرالد جونز » يمكن أن يطل في
 قلبه محل صديقه العربي ولید ، لأن حوزر كان من الخامسة
 والعشرين ، وهي سن تبدو لأنطون كبيرة نسبيا بطبيعة
 الحال ، بيد أنه كان يحب تلك الحجرة المبطنة جدرانها من

شماس في تركة المرتلين بالكنيسة - قد سمع بأذنيه منذ صبيته
صرخات العذارى يفتصبهن جنود اليهود .. وصعدت النساء
العقيلات المحصنات يتهك حرمهن جنود إسرائيل ...
ورأى عبسه رحلا ونساء من مواطنيه يشربون نول بعضهم
البعض ، ويتقاتلون على الطفر بتقطرة منه ! .. شهيد بنمسيه
كيف تحرد الناس من إسمائهم بحب وطه ذات الاستعداد
وحشى في امره ، ورأى وحها لوحه ملك الموت وهو مطارد
الناس بطارد رهيبه مفرعة ! ..

كل هذا كان جونر يعرفه ، فلم يصنق لحنه واحده أن
اعطون يمكن أن تسمى تلك الذكريات المروعة ، أو أن تطايره
المعنى بالاستسلام والاعباد لمسيحه الله يمكن أن يدل على
حقيقة حالته النفسية . إن « الباقم » في هذه احواله لا يمكن
أن يدل على طبيعة سوية خاصة من اشدود ، بل هو في مثل
هذه الظروف دليل قاطع على الشذوذ ، وبلد الإحسان .

ولذا كان جونر واثقا بكل الثقة أن اعطون منصور بجن إلى
وطنه فلسطين العربي حبيبا ملحا لا هواة فيه .. حينما
مساء ، لانه قاسى الاسراع من حدوده لأصله في مسه
الأول بمدينة الأد ، يوم تلك المسيره الرهيبه المشؤومة ..
ثم قاسى مره اخرى الاقتراع من وطنه كله يعيش في لندن
بحوها القارس وأحوالها الاجتماعيه الفكره التي لا تلبث إلى
شرق بصله ، ولا سيما أن رحيله من أرمسا إلى لندن جاء
على اثر فجيئته في ابنه الذي كان يحبه جدا .

في انطواء بحد صورة « الانبساط » .. ولا سيما أن اسمه
وسجته وكل شيء فيه يذكر زملاءه باختلافه عنهم في المنه
والسلاله والكوس النسبي والاجتماعي . أما ها فهو لا يصنع
شيئ ، ولا يحس بحاجة إلى التمسع أو الباطر .. وعنده
بفرده التي تحسب « عليه » في المدرسه تحسب « له » ها في
بيت آل جونر مريه يستحق بسببها الرعايه والاهنيه والتميز .
ومع هذا كله لم يعض انطوب حتى ولا لجيرالد جونر بخله
للقديس حول طريق يتر سبع ، طريق العوده ، طريق العمل .
فهذا سر بينه وبين ويده ، وليس من حقه أن يوح به لأحد .
بالمزق منر سبع هو رمز عقيدته الوطنيه التي لا تقبل مذاحه
لديه عن عقيدته الدينية ..

وهذا السر المقدس هو الذى يكمن وراء قلته وعدم
استقراره ، ذلك القلق الذى يختفى تحت سطح ظاهري من
المرح والدمثه . وقد استماع جونر الشاب لمعد الشذوذ
على سمعه دى العجالات أن يستشف هذا القلق ويحتم من
لسى لعربي به يستطع بعد أن يصل إلى « الاسم » بالحياه
لإنجليزيه ، رغم كل هذه الظواهر الخادعة .

إن جونر شخصيا لم يكن يشعر أنه على سجيته وهو في
اكسفورد . رغم سمعته بين أقرانه بأنه شهاب مرع سليم
الطوبه . وقد ظل الناس محدوعين فيه إلى أن حلت به كارثة
المرض المتعد ، محرره أخيرا من تكاليف التظاهرة الخادع
إرضاء لمن حوله !

وإن وراء ابتسامه انطون البريئة المشرقة لكثيرا جدا مما
لا يحظر بال زملائه الإنجليز . فهذا العلى البريء - كأنه

وقد انتهزت ماريان فرصة إجازة حصلت عليها من عملها
صحبت أنطون إلى مقاطعة (بريمن) بفرنسا ، لا شيء إلا
لتخلص من جو انطرا وأهلها ويستمتع بمطر البحر على
هواها . وكانت قد صحت والديها في فترة طعولتها إلى هذا
الموضع عينه أثناء إجازة حصلوا عليها أثناء خدمة أبيها في
بلسطين ، مكنت (سان مالو) بالدات من الأماكن التي طلت
عائلة بدهنها منذ ذلك الحين باعتبارها منتجعا لجمال الطبيعة
الأحادي . وإلى هناك صحبت ابنتها مع انها كانت تعلم سلفا أن
أكثر من ثلاثة أرباع مدينة (سان مالو) العتيقة ذات الأسوار
قد تهدمت أو أحرقت أثناء معركة تحريرها في سنة ١٩٤٤ .
ولكن قيل لها إنها جددت بسرعة وأن حصون القرن الثاني عشر
الباريضة لم تزال على حالها لم يمسسها أذى .

وكانت الرحلة البحرية الليلية إلى هناك مشرة جدا بالنفس
لأنطون الذي لم يركب سحرة قبل ذلك ، وإبما كانت رحلاته
كلها عبر البحر بالطائرة . وكان تفكيره في أثناء تلك الرحلة
البدعة منصرفا إلى صديقه وليد . أما أمه ماريان فكانت تعكرها
بمصرفها إلى بطرس منصور ، وهي تنسائل لمساذا لم يرحلا بها
إلى أورما مثل هذه الرحلة الجميلة التي سراءى منها طيور
النورس محبومة صائحة فوق رؤوس الركاب ؟ لماذا لم يسهورا
في رحلاتهما ببيروت عاصمة لبنان ؟ وكان الحواب الطبيعي الذي
خطر لها أن رغبتهما لم تتجه هذا الاتجاه ، ولو شاء لما حال
بينهما وبين تلك المتعة شيء . فإن بطرسا كان يحب بيروت حبا
حما ، فكان يختارها للنزهة والاستحمام كلما نزلت معه إلى
المنغير . وكانت رغبة بطرس مع أمه باقيا على " ولم يالدة "

لا بد أن يكون المرء أبلها أو معتوها حتى تزايل إحساسه
مثل هذه الكوارث المررلة بهذه السرعة وهذا السر الذي
توهمه المحذوعون بمرح المعنى وديانته . ولكن أنطون معصور
غنى ذكي البقل والقلب . مرهب الحس ، فلا يمكن أن
يكون هذا مؤنمه احتقنى . ولابد أن ثمة توقرا شديدا تحت
هذا القناع التمثيلي المتهازل على الدوام .

كان هذا رأي جيرالد جوس . وكان أنطون لا يعرف عن هذا
الرأي شيئا . وكل ما هناك أنه يحس بعدم حاجته إلى الطعام
وهو في ست ١٢ جونز . ولكنه كان يأسى للوحدة أكثر أعضا
مها يأسى إلى ست آل جونز . لأنه في وحدته يستطيع أن
يطلق المعيار لحواطره ويتصور نفسه في مروح (رام الله ،
وروابها أو في كيف حبل التحرير عند أريحا . في صحبة
صديقه وليد .

وفي أول صيف فضاء بالخطرا بعد انتهاء السنة الدراسية .
كتب إلى وليد ، يقول له :

« لقد حظينا هنا ببضعة أيام من الدفء وصلت فيها درجة
الحرارة إلى ٨٠ فهرنهايت ، فليس الناس نظارات سوداء ،
يراحوا يعلون : « ألا ما أشد هذا الحر ! » . . وعندما أقول
أصحابي الإنجليز أن الحرارة في أريحا في مثل هذه الأيام تصل
إلى حد قطع جدا حتى أن الدباب يموت من وطأة الحر .
يظنون أنني أمزح ، ولا يتصورون حرارة السد من ٨٠
فهرنهايت ! » .

لها . علم عكر مط في محاسنه او اقتراح شيء غير اذى خطر
ببيله . ولكن لو أن المتقادر أمهله بصنع سنوات أخرى لحضر
معه ومع انطون إلى انجلترا لإتاحة فرصة إسماع العسم
لوحيدهما . وعندئذ كانت أسرار مالو وما إليها من الامكن
الحيطة في اوربا حرية أن موز باحساره عوضا عن سيوت . .
ويكن هذا كله لم يسمح به الرمن لأن « النكه » حطمت ظلت
بطرس قبل الأوان . .

ولاحظ منها مطرة إلى انطون وهو واقف بحوارها مستندا
إلى سياج السخرة ، والهواء يبعث شعره الأسود العرير .
ونظره حد واهتمام سرائى في عينه . مقالات في نفسها :

— هذا انطون بن بطرس منصور . . وليس الفتى الذي
كان يرتدى منذ أيام قلائل قبعة المدرسة الإنجليزية ولا مكاد
المرء يميزه بحال من الأحوال من سائر أبناء الإنجليز اقرانه في
اللسن . هذا انطون صديق وليد الذي ذهب معه في عيد
الفصح من المصرم إلى انجلترا . وعند انطلق الآن من أسر
الحياة الإبحرية وشكائيا وارتد إلى عمه الإصل . إن
يعينه انطون الذي سيعود يوما ما إلى مسقط رأسه وارض
بمعاده ووطن أبيه وأجداده العرب . .

وعندما طلع النهار وحرجه من قهرنهما بالسمنه للمعيا
نفسيهما تحسب أسوار (سان مالو) تقريبا ، صاح انطون في
حبور :

— ألا يا أشبهها بمدينة القدس !

. نعم . على نحو ما . ولكن الحياة وراء هذه الأسوار
محطته منها عن الحياة التي وراء أسوار القدس . كما أن هذه
الأسوار التي تراها أقدم من أسوار القدس بنحو أربعة قرون !

ونزلا في فندق صغير يقع في شارع ضيق منحدر يكثر فيه
المصطافون إلى درجة الأزدحام ، وعلى جانبيه عشرات من
حوانيت الفاكهة والحصر ، والمقاهى الصغيرة ، مما ذكره إلى
حد ما مجو محسة القدس القديمة . ولكن ماريان شددت على
انطون كي لا يصرف اهتمامه إلى الشوارع الضيقة ، لأنها لم
تسا لروحه الموانيت والمقاهى ولا رقة الداحسه ، بل لدمع
بالبحر وهوائه وأمواجه الزبرجدية .

وأوشك النى وإمه أن يمسسا نفسيهما وهما يتطلعسان إلى
جمال البحر انصافى ، بحمرته الأشاحه ، من فوق بحصيات
المدة التاريخية . والنق أن المنظر من هناك لا يمله المرء ولو
تقى في تلك ساعات النهار جميعا .

وعندما انخفض مستوى الماء بانحسار المد ، سارا معا
إلى الجزيرة الصغيرة التي يواجهها فيها البحر الصاخب
اللامتاهى صريح من الجرانيت تمن منه الكعب الفرنسى
العظيم « شاتوبريان » ، تحف به الأزهار البرية الكثيرة التى
يجل الهواء . عبرها المسكر مع كل سبه من سمائه ، مختلطا
برائحة العشب البحرى المتراكم . .

وعثرا على فحوة بين الصخور بعيدة عن هبوب الريح ينمو
فيها العشب البرى والأقحوان . وهناك اقترشا الأرض ،

وتنهذ انطون بارتياح وهو يملأ عينيه وصدره من البحر وهوائه ، وقال :

— ألا ليت لا تعود إلى لندن !

— حقا ؟ لقد حسبتك تحب لندن بما لك فيها من اصدقاء .. وزملاء في المدرسة ، وشرق رياضية ، والميزة العالم الكبير ..
— كل هذا حسن ، ولكني اشعر نسي لا أتمنى إلى شيء من هذا .

— ولكنك يا بني نصف إنجليزي !

— أعلم هذا . ولكني لم اولد هكذا . ولم أعش في ذلك الديار قبل هذا العام ..

— ولكنك أقل انتهاء إلى هذا المكان — من أرض مريسا — الذي لا تربطك به ولو أسرة اللغة .

نادر يرد عليها ، قائلا :

— بالعكس ! إن انعدام أسرة اللغة من شأنه أن يحمل الأمر أسهل على نفسي !

— لماذا ؟

— لأنني في هذه الحالة سوف لا أكون مطالب بالاحتلاط والاندماج الاصصاعي انك .. والحقيقة أنني لا اشعر في جميع الاوقات برغبة في الاندماج الاجتماعي .

— أدرك ماذا تعني ، ولكن لابد لك من المعلم كما تعلم .
— لقد كنت أعلم على ما يرام وأنا في (رام الله) !

— ولم يكن في وسعي أن أبقى في الأردن يا انطون . وأتوت نفسه في الليلة السابقة لوفاته أوصائي أن ..

وتهدح صوبها وراحت تلمس ميسلها في حقيقه ندعا وهي تحاول عبثا رد طوفان الدموع التي انجست فجأة .. فاستولى على انطون الندم ، وقال لها :

— واها لي ! لقد سمعت لك الأسى في هذه اللحظة احمك .
أرحوك الا بحري ونسني إلى على سر حال في لندن . وكل ما هناك أنني اشعر بالحنين إلى وطني أحيانا ، واشتاق إلى وليد . ولما وجدت نفسي هنا بعيدا عن إنجلترا ، تجددت عذري هذا الحنين والشوق ..

— أعلم هذا يا ولدي . ولكن تذكر انك ستكون في الدمار .. عشرة من عمرك هذا العام ، وبعد ثلاثة أعوام أخرى سيمود إلى الأردن إن شاء الله ! وهي ليست مائدة الطويلة ، السرى كذلك ؟

— كلا في الواقع ..

ونفض قائما على قدميه ومد يده إلى أمه ليصحبها على النهوض ، قائلا :

— هيا بنا نتم جولتنا حول الجزيرة ثم نعود إلى التحصينات لبحطلي هناك نناول « الحلالتى » في شرفة المقهى تحت المظلات الكبيرة !

وانجابت أمام هبات هواء البحر الطلعة سبحانه الأسى ، ولم تنق أمهما سوى صفحة الحاضر النديج ..

- ٤ -

كان مقسوما لرحلة (سان مالو) أن تظل ذكري مفردة في ذهن أطول وأمه ، لأنها كانت الرحلة الوحيدة لهما في العطلات . فقد قرر « روبرت ملين » أن علاما في الخامسة عشرة لا ينبغي أن يفقد عائلته « روبرت » إلى « بئر سبع » ووافقت ماريان أباهما على مضض . .

وتغير بالفعل موال حياتهما . فعندما حل الصيف ، التمسالي كنت ماريان شديد الانسحاب في « بئر سبع » ، أما أطول فذهب مع رفاقه في التدريب العسكري إلى معسكر صيفي ابتداء من شهر يوليو ، وكان قد حصل قبل ذلك على « شريط » صار مصدر اعزازة ورفوة ، وجعله يشعر بأنه أكثر سفا بكثير من الفلام الذي ذهب منذ عام واحد إلى (سان مالو) في صحبه والدته . لقد صار أطول بطرس منصور « أومباشيا » ، ثم أم يلبث أن صار « جاوبشا » ، الأمر الذي جعله يبرز صدره إلى الأمام ويبدو أكثر ثقة بنفسه في كسوته الصغراء . . . وقد ساعده ذلك على عدم اللجوء إلى التطاهر كي يكسب تقدير رفاقه ، لأنه صار الآن « شيد ، مذور » شعر حجبته إلى « رخصاء حد

أما ماريان فاندمجت في قسم التحرير بصحيفة الشرق الأوسط التي تعمل بها ، واستمدادوا من معرفتها لثقة العربية مبعوثا بها في الصيف إلى بيروت لجمع مطلوبات معينة ، ثم طارت من هناك إلى الكويت أثناء وجود أطول في معسكر التدريب . ومن الشرق كتبت إلى أمها تخبرها أنها سوف

لا تعود إلى إنجلترا إلا بعد عيد الميلاد ، وطلبت منها السماح لأطول بانهذه إلى سويسرا في « شبيب » ستمنع بالارفاق على الجليد مع زميله لندلى في عطلة عيد الميلاد ورأس السنة . وبطبيعة الحال رحب أطول بهذه الفكرة برحب كبير . لأنه كان زاهدا جدا في قضاء عيد الميلاد في إنجلترا بعد مجرته . الأولى . وفي الوقت نفسه كان يحب « لندلى » كثيرا — وهو أكثر منه سفا بعض الشيء — لأنه يشاركه الاهتمام ب« بئر سبع » التدريب ويذهب معه في أيام الصيف في ساعه ميكرة للسيبحة قبل موعد الدراسة في بحيرة صغيرة محاطة بالأشجار الكثيرة قرب ضاحية الهواء في أسره العام . والمساء في تلك الساعه يكون بردا « ملح » ورحله إلى « بئر سبع » « بئر سبع » النشاط والمرح . وبعد السباحة يعودان معا إلى بيت جديده لناول الإفطار بشهية عظيمة .

ولم يقصر أطول في واجباته المدرسية رغم هذا النشاط الرياضي . وسرعان ما أصبح يتولى في مجلس إدارة « بئر سبع » . ثم بعد ذلك لا يعود إلى « بئر سبع » .

* * *

لكن ماريان عادت في تلك السنة قبل عيد الميلاد ، وبذلك لم يبق لها « بئر سبع » إلى سويسرا وقضى العطلة مع أمه وحده ، إلا أنه لم يذهب معهم إلى السهرات العائلية ، بل قضى سهرات مع رفاقه المقيمين فيها فصبحت كثيرات ، بدأه لم يشعر بازدياد إلى صحتهم . ولما وحنه خجولا مرتبكا في « بئر سبع » متحفظا في حديثه وحركاته معهم ، استصعبوا شدة راحته « تلميذا » غشيبا في أمور الغرام

ويحول مع والده عشية عيد الميلاد في ميدان الطرف الاخر ،
واسمع للبريل النحى ، واسمع بالشجرة السكندرية
العملاقة المعده في الميدان بمناخه عند ميلاد - وفي صباح
عيد الميلاد ذهبوا جميعا - بما فيهم جده - إلى الكنيسة .

وكانت هذه الفترة بداية احمرار في صدافه بلدي - اندى
اندى في حفلات عيد الميلاد اهتماما وصحا بصحة التماس .
لا عن اهتمام واحد منهم بانذار - بل كان « الحسن » و
محمود يسهويه بصور حارقه لم يسرح إليها بطون !

اجل انهم لم يرا الا على عهديها من اسر مساهم في
الراحة بين الدروس ، ولكن التقاءهما خارج المدرسة قل كتبه
عن دى غل ، لأن انطون شعر بعدم القابلية او عدم القدرة على
محرارته في اهتمامه الحسية الحديده . بعد ان ذلك لم
يقل على نفس انطون ، لانه من حانه استحدث لنفسه اهتمام
بب نوع حديده حاسم به ، وهو الاهتمام بالكتب . لم يد كان
يشعر قبل الآن أن عدم استقراره يفسده من قراءة اى شيء
سوى ، بطلته دراسه من الكتب العلميه . ولم يكن يده
يفسح من الوقت للقراءة الخاصة كهواية . وحتى في تلك
الأوقات التي لم يكن ذهبه فيها مكررا على موضوعات الدرس -
كان حله في رده دائما إلى رواى عيسى وأحامها وبنائها
وحمايتها . مسكر باره انه في اريخ ، وبارة اخرى يمثل
وليدا في (رام الله) ، أو تتراعى له طريق . . (بئر سبع) !

ولكن في عيد الميلاد من هذه السنة قدم إليه أستاذه
« جيرالد جومز » المجلد الأولى من مذكرات شاتوبريان .

بمناسبة ريارته السابقة لسان ماثو حيث ولد انكاتب لعدده
وحيث زار مع ماريلن ضريحه ، وقال له :

- لقد كان شاتوبريان غلاما يشعر بوحشة ووحدة
عظيمه ، وذن مرهف الحسى مشوب الخيال ، وقد يروق لك
أن تعرف على معلم طفولته وصباه ، وسرى كيف كان أبوه
العاسى برعته على النوم بعفده فوق قمة برج من أبراج انطون
العبيده . وذن انشأ مع من انشأ ان ذلك الفرح من كنه
الاشباح والذروح الشريرة . ولا سبيل للوصول إلى عتبه إلا
عن طريق مشارف بعثش فيها اللوم الذي ينطأ في الظلام
وهو يرسل بعده الكتيب ابرهيت محبلا بهريم أندرد ورمحده
رياح الشتاء وهدير الموج في البحر الثائر !

والحفظة ان جيرالد انثار اهتمام انطون بالكتاب من طريق
إنارده حباله . فراح العنى يقرأ الكتاب بهم عظيم . ولم يسمعه
كثيرا لما قرأه في تلك الصفحات من شدة حنين « هرائسوا
ربيه شاتوبريان » لصغر إلى احب الانثوى ، مما كان هذا
الحين ليجد صدى في نفسه ، ولكن مخاوف العلام الصغر .
وحمله ، وبردده ، وشكوكه ، وجدت صدى عظيم في نفس
العنى العربى المغترب ، وكذلك الإحساس بالعبء الباهظ
الذى تلعبه على كاهله الواهن هذا العالم غير المفهوم

وقرر انطون أن يذهب مره اخرى يوما ما إلى
قبرور قلعه « كومبرج » ويعبر تلك المشارف الرهيبه التي
اجتازها في الظلام - ليلة بعد ليلة - ذلك ليصل إلى
الصغير « شاتوبريان » وهو يقاوم الفوج والارواح . وعصر

انطون بهذه الرغبة إلى أمه . ووعده بان يذهب إلى هناك في عطلة عيد الفصح ، ثم تأجلت الرحلة إلى عطلة الصيف ، ولما انطون حالت دون تنفيذ هذا الوعد على نحو ما حذر . ومبصر انك تطون كثيرا . لأنه تجاوز مرحلة ذلك الكتاب إلى كتب أخرى أسسرت تفكيره . فبعد أهم كتب الممارات لخصمه والرحلات . ومن أهمها رحلة جرير البراند لندكور هونيمون ، وقد استعار هذه الكتب من مكتبة «جيرالد جونز» . ثم نقب في مكتبة جده عن كتب أخرى فوجد كتابا عنوانه «سعد الصياد» بقلم «بكتول» . وسعيد هذا رجل شجاع . يردد في يوم نسيود الاسلام على صورة لم يره . انطون نفسه من الهتاف لها بحماسة عند الفراغ من تلاوة قصته . وسأل انطون عن هذا المؤلف «بكتول» ومن عساه يكون ، وهو يجد في كتبه وصفا صادقا لأحوال فلسطين منذ أواخر القرن الماضي ، فقال له جده :

— إنه ابن قس إنحسري ، وقد أحب الشرق العربي وفلسطين وسورية واسبق الإسلام وتعلم العربية بعقده مدبا وترجم القرآن إلى الإنجليزية . وأدرك أن الصهيونية لا يمكن ان تنتعش في فلسطين إلا تحت حماية الغراب الإنجليزي . وقد كتب تلك مزرحة في سنة ١٩٢٩ . وقد لاقت قصته «سعد الصياد» رواجاً كبيراً بين القراء الإنجليز ، ولكنه صار الآن . في يد من . وهو بلا شك من أعرف الناس بأحوال العرب ودمهم حمة لهم . ولكم آثاره الظلم الذي يصب على عرب فلسطين صيبا بالتصاوغ المتواطىء بين الحكم الإنجليزي

والصهيونية . وقد مات الرجل في سنة ١٩٣٦ ، وكانت ترجمة القرآن آخر أعماله ، وكان القدر رحيماً به حين جنبه عذاب مشاهدة التكية التي حلت بفلسطين .

واكتشف انطون ان أمه تعرف «بكتول» وقرأت كتبه . وكانت تعجب كثيراً بكتبه عن الشرق وبقصصه الشريفة . أما قصصه الإنجليزية فلا تعجبها على الإطلاق . و «سعيد الصياد» في نظرها أحسن ما كتبه من بلاد العرب ، لأن ذلك الكاتب لم يكن يعرف شيئاً عن المتعلمين العرب . وليس كل معرفته بالسطاء والأمس . فقد كان يفهم روحهم وعقيدتهم جيداً .

وكان المعرض بعد انتهاء انطون من المدرسة الثانوية لا يدخل يد منه العلوم الاقتصادية لذلك لم يصبه الاهتمام إلا بعد حصته سنة في المدرسة انتهى إلى احتفائه بمفكرين . فمضى تلك السنة من المدرسة والاحتفاء بالادباء من مواطنيه الآخرين . كي تكون هذه السنة مرموقة له للاجتماع بصديقه وليد ، ولعلهما يستطعيان في غدا . تلك السنة التسلل إلى بنو سبع . ولكن بعد ذلك . بنو .

وافضى بفكرته إلى جده الذي قال له

سأستأري ما يمنع من ذلك ، بشرط أن توافق أمك على هذا السفر بطبيعة الحال . ما بها قد لا تميل كثيراً إلى . فنه .

سنة كامله

ب ولكنها ستسمح لي بالسفر إذا أنت جئت فكرتي ،
وقلت لها أن أبي كان حرياً أن يقرأها لو كان على قيد الحياة
أليس هذا رائع يا جدي ؟

نظر روبرت ملي إلى وجه حميدة المتلف ، ثم قال

— بلي ! أظن هذا ، فقد كان يريد لك أن تظل عربياً . وإن
كان حريصاً على أن تتلقى تعليمك في إنجلترا . ولكنه من جهة
أخرى ما كان يحب لك أن تهجر أمك . .

— ولكنني سوف لا أهرها يا جدي . فلسوف أعود في
نهاية السنة وسأبقى هنا مستيقظاً للقاء الحاضرات في
الجامعة . ثم أنها لا تراهي أثناء العام الدراسي إلا مرة واحدة
في عدله لا موع . وفي بعض الأحيان يمر العطله الأسبوع
من عمر أن تراهي ، حين تكون مشغولة أو مسافرة لتسقط
الأخبار ! أنا واثق أنها لن تنزع .

— سنبحث الأمر كله يوم الأحد . ولكن خبرني هل فكرت
فيما ستصنعه هناك في الأردن ؟

فاحمر وجهه ، وقال :

— خطر لي أن أساعد في إدارة معهد العمالي ببيت لحم حيث
يعم صديقي أمين . واعتقد أني وسعك أن تمهد لي ذلك ، بما
أن معهد بيت لحم تابع للجمعية التي تشرف على معهد يافا
حيث كنت تعمل أنت فيها مضي . ولا سيما أنني أعرفه الشيء
الكثير عن أمين بسبب معاشرتي الطويلة لأمين كما تعلم .

— فكرة طيبة فعلاً ، بل طيبة جداً ، سأذهب إلى بئر
الجمعية وأحدث إليهم في هذا الموضوع منذ الآن . فهذه
المسائل مستقرق الانتهاء منها وقتاً طويلاً إلى أن سمعوا
. . فهناك مستويات كثيرة للجان كما تعلم .

— شكرا لك . وثق بي بسند للقيام بي عمل هناك .
كان صغيراً ، وإن أحذلك . لاني في الجمعية مهتم جداً بسميائ
ولا سيما أن « أمين » سيكون معي طول الوقت . وسيكون في
وسمي أن أرى صديقي خالدًا في أوقات فراغي . . إلا ما
أبدع هذا !

— ولكن ما الذي جعلك تفكر في هذه الأمور كلها ؟ هل
أصابتك نوبة أخرى من الحنين إلى الوطن ؟

— أوه . إن المسألة في مجموعها معقدة كما تعلم . ويدخل
فيها عدد كبير من العوامل . .

— مفهوم . مفهوم . إن فلسطين طبعاً حياتك الحقيقية .
ولقد كان فلسطين حياتي الحقيقية يوماً ما . ثم أي سؤال
كل ما استطيع لتحقيق هذا الأمل إن شاء الله !

— إن شاء الله . .

— ٥ —

حري هذا الحديث في حجره الجلوس في مساء من امسيات
 في مهب الباردة ، والضباب يزحف من المتزه العام متسللا إلى
 داخل البيت على الرغم من التوعد المقلقة والسيائر المستدلة .
 وقد جلس مستر ملي في مقعده الوثير العتيق بحاجب النار .
 وجلس شائله انطون . اما «الزيميث» فكانت خارج البيت تحضر
 اجتماعا لأحدى اللجان المحلية التي تشترك فيها . ولذا لم
 أنطون في هذا المساء أن يستريح في جلوسه كما يشاء ، بل
 يلزمه من المداومة بكل من الحشب لمحول بينها وبين العمود .
 أما جده فهو على عادته معه لا يبدى اعتراضا على تصرف من
 يصم عانه ، بل يشعر انطون في قرارة نفسه أن جسده يضم
 المنسجج له على أنواع السلوك التي تنصق بها حديثه ؛ وإذا
 فهو يشعر بالألم الشديد وسكسة اليأس حينما يفتق إلى من
 في هذا النحو ، سيما حديثه بعضى ومنها في الخارج .
 مسدده هذه الحدة ؛ فهي من ذلك لطراف من الناس الذي
 تشعر أنه يجبك أكثر بكثير مما تحبه ، وكنت حريا أن تحبه
 بمزيد من القوة والعبق لو أن حبه لك خفت حذته قليلا !

وتحيل انطون أن الجدة عادت من الخارج - وأنور من مسعة
 انها بددت تلك الغيمة الغريبة إلى النسي . وما يعيى به من
 حرارة وإيناس ، فأوقدت المصابيح السديدة وصاحب بهما في
 استنكار كعادتها :

— لماذا تجلسان هكذا في العتية ؟ وهذه النار المتأججة !
 إن الحرارة هنا شديدة لا تطاق !

ويسرعة يروح كل منهما يرفع الوسائد الصغيرة من وراء
 ظهره ويعددها إلى مكانها المرسوم من حجرة الجلوس . أما
 لجده مساوئ مسحب المساء المقاه حديثا امقق فوق حشد
 المقاعد ، وسرعان ما « ترتبها » في مكان خفي عن الأنظار
 كالعبادة !

وبعد ذلك مرمجة ملوثة . وسليل الأواني الخزفية . لا
 الحدة يصمم الشاي ، وبعد الانتهاء من شبعه ، يصم قدر الماء
 كعادتها كل ليلة لأعداد الماء الساخن الذي يمد به أفراد البيت
 لتدفئة أسرة النوم .

وكما هذه كل سنة بعد . سويع الحدة من انطون بعد . و
 سببه ويسكنونه « مسجج » إلى حجرته بعد أن يذهب إلى
 « المسجج » راحته المسجج . ولكن أوفيت لم يشد حد
 حور الثامنة مساء ، بكن . ولم يكن الحدة قد عادت بعد .
 وبين من المنظر أن يعود قبل ساعة . وفي وسعه هو وهذه
 بعد ما طاب لهما الحديث و بصمتا ما طاب لهما العجب ،
 قصصهما مائوس كحديثهما أو أشد أنسا . أما الحدة فلا تعرف
 أصب دعى - إلا إذا كثر امرء يطالع أو يكتب . أما في عم
 هائس الخائس يعنى بسطر من كل إنسان أن يتحدث في شيء .
 أي شيء ، حتى ولو لم يكن شيء ما يستدعى الكلام . ويبدو
 السبب أيضا كنت يستخدم إلى دين قبل مسدده مكر .
 لسماع بشرات الأخضر على الخصوس ونشرة الجوه . ما

الكلام لم يخلق له الراديو ، وإنما خلقت له السنة العاس ! . .
في حين كان الجد ينتهز فرصة خروجها من البيت ليدير معانيده
ويتلمس الترامج الموسيقية الجملة من بروكسل أو لكسمبورج .
وما أشد ما كبر يأسى على أنه لا يستطيع المعافاة إبداع عمان
والقاهرة !

وفي ذلك المساء كان مدار حديثهما عن سفر أنطون إلى
الأردن ، وكلاهما أوغلا في مناقشة الموضوع بدا لهما معنى
التنفيذ . وارتفعت روح أنطون المعنوية ، حتى أنه صاح :

— لم يبق إلا سنة واحدة ! اتظر يا جدى أنه سيكون
وسعى بعد ذلك أن أحفل بأعياد الميلاد في بيت لحم نفسها .
— ربما . ولكن والدتك قد تساءل وينادى شعورها .
ولا تنس أيضا موقف جدتك من هذا التفكير !

— آه ! لقد حظيت « ماما » بعيد الميلاد في الكويت عندما
راقتها هذا !

— ولكنها لم تمكث هناك سنة كاملة . اسمع ! هيا بنا
نصل بهب الآن لسموبيا ونحاول الاتفاق معها على المس .
مبدئيا . . . !

وكاتب ماريان في شقتها الحاصة - وقد أدهشها أن يلقى
حديثا تليفونيا من والدها ، وكان أول ما خطر لها أن يسوء
أصابها أو أنطون ، ولكن والدها صرف عن ذهنها هذا
الخطر بالخوض مباشرة في الموضوع :

— ماذا برين في قضاء أنطون سنة العمل التدريبي في
الأردن . ورب كان هذا في مدرسة المكفومين ببيت لحم ؟

واجفلت لأول وهلة ، ثم شعرت بضيق ، فقالت :
— وهل لا بد لنا من البت في هذه المسألة الآن ؟ لن تكون
بنا حاجة إلى ذلك إلا في السنة التي بعد التالية !

— هذه المسائل ستفترق بديرها وقت طويلا . والمكسر
مستولية علينا أنا وأنطون .

— أهى فكرتك ؟

— بل فكرة أنطون . ولكنها تبدو لي فكرة طيبة .

— اتعنى أنه هو الذى فكر في هذه الخطة أليس شفته بعدا
عن البيت سنة بطولها ؟

— إنه ليس طفلا يا ماريان . ثم إنه في مقيدورك عند
العام يحدى أسفارك الصحفية إلى أشرق الأوسط أن ترحي
على القدس لقرية .

— لست أحب أن أذهب إلى القدس مرة أخرى . وأنت
تعرف شعورى أنك أنت أيضا لا أحب هذا . ملهنا برين
أن يذهب إلى هناك ؟ لقد كان الاتفاق فيها بيننا أن يقضى في
الأردن عطلة محدودة قبل أن يسلم عمله الذى سيشترع منه
هنا . ويتعنى أن يكون هذا حسنة .

— إنه يشعر بالحنين إلى وطنه يا ماريان !

— إن وطنه في الوقت الحاضر هي هنا !

— وهل نسيت أنه ابن بطرس منصور ؟ إن وطنه فلسطين !

— لم يمد لهذا الوطن الآن وجود .

— لا . بل الضمة الغربية لم تزل قائمة ، حيث مايلس ، ورام الله ، وبیت لحم ، وأريحا ، والخليل . وفي إمكان المرء أن يمشي إلى الجزء . إن أعوزه الحثين إلى الكل !

وعندئذ قالت ماريان في حشر صاعد : « نسي في وجهه »
من مناقش هذا الموضوع عبر أسلاك التليفون ، فأيقنه حتى
أحضر يوم الأحد .

— ولكن أنطون لن يوانيه النوم ما لم يعرف أنك تواقف
على فكرته من حدث المبدأ .

وتوسل إليه أنطون ، قائلاً : « دعني اكلمها ! » .

فقال لها أبوها : « أنطون يريد أن يكلمك بنفسه » .

— أرجوك يا أماء أن تقولن نعم ! أرجوك !

— هل تكره إحتلنا إلى هذا الحد ؟

— أنا لا أكره إحتلنا .. أنت تعلمين تمام العلم أنني
لا أكرهها ! ولكني أريد أن أرى وليداً وأميناً وعمي فريداً
وسائر الأقارب . أنني إن ذهبت إليهم في نهاية العام 'مصادم'
سأكون قد سلخت بعيداً عنهم أربع سنين ؟

— كثيراً ما يظل الناس بعيدين عن أوطانهم عشرين سنة ،
أو ثلاثين ... بل العمر كله أحياناً !

— لا أستطيع يا أماء ! هذا فوق مقدوري . لأموثن
لو فعلت ! أرجوك يا أمي الحبيبة أن تقولن نعم !

وشعرت ماريان على الفور أنها حسرت إحولة ، فقلت :
« ليكن . ما دام هذا مطلباً عزيزاً عليك إلى هذا الحد . ولكن
دعني اكلم جدك من فضلك » .

— أوه . أحبك يا أمي ! أحبك . أحبك ! .. ها هو جدي ،
وقالت ماريان لأنها : « لملك أدركت أنني أنسى برهته » .
ولكنني غير راضية بنفس . ما وأثقه أنها ملطه .. » .

— لست أدري كيف يمكن أن تكون كذلك يا عزيزتي .
— دعنا من الكلام في هذا الآن . وسأحضر للغداء يوم
الأحد إن شاء الله .

— إن شاء الله . وطابت ليلتك يا عزيزتي .

ووضع « ملبى » المسامع ، ونظر إلى حفيده وإبتميم كل
مهما لصاحبه ، ثم قال ملبى : « سيكون كل شيء على
ما يرام .. أنها في الوقت الحاضر غير مستعدة له ..
ولكنها ستدخل الطبقة على نفسها يوم الأحد عندئذ
تحضر » .

فصاح أنطون : « بل هذا رائع . رائع جداً ! كم كنت
أعني لو حنن معي . أنت وماما وحدي .. معبود كلنا معاً
إلى الوطن .. » .

أما ماريان فلم تنحرك من حوار التلتموس بعد أن وصفت
المسامع ، بل دفنت وجهها في يديها ، واندمعت تنكي ..

- ٦ -

أما « الزبيث » فكانت صريحة في معارضتها لشرع سفر
مكتوب إلى الأردن . وادى شعورها أن يعكر انطون مثل هذا
التفكير ، وأغضبها أن يكون جده روبرت ضالعا معه فيه ،
وأن تكون ماريان من الضعف بحيث لا تقف في وجه هذا
المشروع وقمة حساسه . . . لقد كانت الجدة موقفة أن انطون
لو عاد إلى الأردن وقضى هناك سنة كاملة فسيكون في ذلك
العمل المرمم على كل ما بدل في السنوات الأربع من جهود
في سبيل إنقلاصه بالطنشاع الانجليزية ، وسيستعين الانتداع
في تلك الجهود من جديد ، حينها يرجع إلى احتلرا . ولكن
هذا لادى مساورها لم يستطع أن يعير من الوضع شيئا ، لأن
الأم ولحد كآبتها لم تحدا غصاسه في شعور انطون معروبه
وحرصه على تحديدها ، ولا تثريب عليه إن هو علب عروبه
الموروثة عن أبيه على ميراثه عن أمه .

وكانت الحدة تتمسك لو أنه ابتدى شيئا من الاهتمام بالعبث
وقد صار الآن في عامه الثامن عشر . فمن أعجب العجب أن
شيئا من أعراض الفتية في تلك السن لم تظهر عليه . وهو
أمر يدعو للارتاء ، لأنه لو تعلق بفتاة لطيفة لاستطاع هذا
البنام أن يشبه عن الرحيل إلى الأردن . . . وداعها الأمل في
أن يلبقى في حلالاب عند الميلاد القادم التي بقميها زملاؤه في
المدرسة بفتاة لطيفة من هذا الطراز الحبل الرقيق المهدب .
ولعلها تكون شقيقة أحد هؤلاء الزملاء .

ولكن عيد الميلاد أقبل ثم ولى من غير أن يجد في الأمر جديد .
ولم يشعر قلب انطون بشيء من الحفصاء ، اللهم إلا حفتس
اللهم والتمنى أن يقضى عيد الميلاد المالي في بيت بعم

لكن الحدة لم يئأس ، بل سميت حين يئس الرسع وبس
انطون مذ اقترت من مام الثامنة عشرة ، أن يحرك منه بوارع
الحب . . نعم ، فلاند أن يقع في هوى فتاة ساعا فرس ،
سيما وأن منظره ومفتته لاند أن يجتديا الفتيت الساحيراث ،
ومن طابع الأشياء أن يستجيب قلبه الشاب لمحاسن
إحداهن !

وراحت مسر على طيل اسكر في ذلك المباء لموودة .
وفي مرجوها أن تكون ابنة إحدى الأسر التي يعرفها الـمسي .
وأول صفاتها أن تكون « سيدة » بمعنى الكلمة ، يلبقى بهب
احبوب في إحدى الجمالات العائله الحسره ، أو إحدى
جمالات الكنيسة ، أو إحدى الأسواق الحريه التي يسميها
الجمعات الكثيرة التي يسهم منها مسر على بشائها اسكر .
واسوف يشب احب بيها - عيب يحفل - من أول نطره .
وعلى مهل تطور العلاقة بينها إلى حمله . ثم بعد سدة أو
سنين يعقد قرانها في الكنيسة . وسيكون حفلا بهيجا أن
يذكر الأسرتان وسما ولا نفقة في إضفاء الأنبة والمرح عليه .
وفي الوقت المناسب سيزرق العروسا الشبان بطفلين أو
ثلاثة . وهكذا يستقر انطون بعد قلق ، ويحلد إلى حياة
إحتلزية بمعنى الكلمة ، ويتحرر من دمه كل أثر لحصالات
المصا التي تحفره للتفكير في العودة إلى وطنه العربي .
ولما لم تستطع مسر على الحوص في حديث هذا الحتم

العزيز عليها مع زوجها روبرت ، انتهزته أول فرصة ففتحت
انبتها ماريان في ذلك . ولكن ماريان أم وليست جعدة .
لم تكن متعملة مثل أمها علي أن يصل إليها - وهو في
السابعة عشرة من عمره - حاله بحال فتاة تستأثر به مدى
العمر . وقالت لأمها بصريح العارية ، أن الطبعه سدد
محراها في أوائها المناسب من غير أن يعيا بعينهما بالقلق
والتفكير في الأمر قبل الأوان .

وكانت لهجة ماريان جارمة . ولا يخلو من نجاد الصبر
و الضيق . ولعلها كانت مذبذبة - في أعماق سريرتها - أن
تقصص الحائث العربي عند أنها بطون ، راحع في الحبل
الأول إلى أن قلبه مشغول بحب كبير أخذ عليه مجاهمه .
وذلك الحب ليس موسوعة أمراء . وإنما موسوعة حلم مسرف
في الخيال ، ولكنه مسرف في الجمال والسحر . إنه حلم
يعوده إلى الوطن الذي سرى دماؤه في عروقه وخطابه .

ولكن شاء التدر غف هذا الحديث بين الحدة والام بوقت
تفسير ، أن يعلق بطون نجاد كال يقابلها بمد بضعة أسابيع ،
في الخفاء !

وكانت ظروف التقائه بها حرية أن تروع جنته ، لأنه لم
يعرف بها في كنيسة ولا حمل ولا جمعية ، بل تعرف بها
في . . الطريق العام !

نفى ذات يوم من أيلم أغسطس الرطبة الحارة ، شعر
أنحبون بعد الظهر بالاختناق ، عوض في حبه كنانا من كب

الاقتصاد ، وانطلق إلى الميتره انعام ، بنشد نسمة علية من
الجهواء . وكان عدد الرواد قليلا في تلك الساعة ، وصف
المقاعد الحشيشة المواجهة لطاحونة بهواء خالط ، معبد
الأوسط ، وحلس عليه بمسرحها بضلع دقائق ، ثم أخرج
كتابه من جيبه ، وشرع يطلعه في غير استغراق . . وإذا به
يسمع صوتا أنثويا ، يقول له :

— عفوك !

مرجع بحره ، وإد نجاد سيداء لسعر يريدى بوا ، أنه
رسوم أرهاق ماقعه اللوز . يتف حوار مقعده ، ولت بحره
كثرة الكحل في عينها ، وغزارة أصابع شفتيها ، وبرو
صدرها الناهد بروزا غير مألوف في نيتته ، تحت سداد
نوبها الضيق .

— عفوك ! هل هذا معطفك الواقى من المطر ؟

واشارت إلى معطف واق من المطر من البلاستيك أحمر
اللوز ، في كنس من البلاستيك أحمر اللوز أصعب . وأم ك
قد ألقى إليه باله حين جلس ، فقال لها : « لا ، إنه ليس
معطفى » .

— إذن فهو معطفى أنا .

واستمتعت ابتسامة مشرقة ، فشعر بجده ارساكه ومد
حقت ، بعد ذكره هذه الانتسامة بانسابة آتة عنه نادية .
واستطردت الفتاة : « لقد تركته هنا وذهبت أنشئ قليلا عند
البحيرة ، وفجأة تذكرت أنى نسيتك ، بعدت . ولكن معطف

رائتك جالسا خشيت الا يكون هذا هو المقعد ، وان يكون
المعطف لك . فما أشد انتشار هذا النوع من معاطف المدر
الآن » .

— إن لدى معطفا منها بالفعل . ولكنه ليس قرمزيا ، بل
لونه أرق دكن . ولكني لم آت به معي .

وجلس الفتاة على المقعد ، وبعد لحظة صمت قالت له :

— لست أحسبك انجليزيا .

— أمي انجليزية .

— ولكني أحسب أبك أسبانيا .

— لا .

وأحرحت من حقه يدها البيضاء عليه سجانر وفداحة ،
وبعد أن اشلعت سيحاربه فدمت إليه العلة ، فقال لها :
« شكرا لك . أنا لا أدخن » .

ومدت يدها إلى الكتاب ، فما قرأت عنوانه أعلمى بدا على
محيائها الاستهوال . وأحدث تحدثه عن عمله ، فلما عرفت
أنه طالب بالمدرسة الثانوية وبهم بدراسة العلوم الاقتصادية
والاجتماعية ، زاد عجبها . وعرفته باسمها : « أسبى روزا
روزادو » .

— اسم جميل .

— إن جدودي أسبان ، وهذا هو السر في اسم روزادو .

— وأنا أسبى منصور . أنطون منصور .

— يا له من اسم ! أهو منسى ؟



فرغ بصره ، وإذا بفتاة سوداء الشعر
ترتدى ثوبا عليه رسوم أزهار لاقطة اللون .

— بل عربى !

— عربى ؟! من اى البلاد انت إذن ؟

— من فلسطين .

فاطمت سيجبرتها ثم قالت : « ولكنك قلت ان امك انجليزية . من اين نصف عربى فقط ؟ »

— وهل هذا يعتبر فى نظرك علامة سيئة او حسنة ؟

— لست ابالى بجنسيات الناس ما داموا ظرفاء . ولكنك

قد قضيت هنا فيها يبدو زما طويلا .

— اربع سنوات . فقد فقدت اسرتى كل شيء تقريبا

عندما دخل اليهود (اللد) فى يوليو سنة ١٩٤٨ . وبذلك

خسرنا بيتنا وسمانين برقاننا ورأس مالنا وكل شيء . وغدا

فيلات هذه الكارثة ابنى . كما قد حسبتا معشيتا فى اربع

سنة . علما فيها بيت وصيعة . ولكن قلب ابنى ثابت فى

حبيبته القديمة ، ما لم يمت ان مات . وحب ابا مع ابي

إلى انجلترا .

— يؤسفنى جدا ان يحدث لكم هذا .

— شكرا لك . ولكن دعينا من هذه الاحاديث المحزنة .

وسحدث قليلا عنك . ماذا تفعلين هنا فى المنزه وحدك ؟

— وحدى ؟ ولماذا لا تخرج الفتاة للنزهة وحدها ؟

— لست ادرى . ولعل السبب ان الفتيات فى بلادى

لا يحولن فى الخلوات وحدهن . ومع هذا لا اعتقد ان

فتات انجليزيات كثيرات يذهبن إلى المتنزهات بمفردهن .

— وما ادرانى . بعضهم يفعلون ذلك ، وبعضهم الآخر لا يفعله . ولكن سىء يتوقف على مراح الفتاة وشخصيتها ، وحالتها العصبية . وانا شخصا ابنى دائما إلى حد فى الامم التى يملق فيها المتحر ابوانه مكررا لاستنشيق شيش من ابواء الطلى . لانى اقضى ايام الاسوع داخل المتحر محروبه من سمه معتبه . عوالدى يدير محرا للملاس السيدات ، مع امراد اسرى : سى يشرف على الحائى المالى والسحارى . واحى على عهده الشراء . واهى على السعديلات لى بطنيا العنلات . وهى لا سارج لجرء الدلى من المتحر . اما انا فاقوم بالبيع فى المتجر بمفردى . . لقد غادرت المدرسه عندما بلغت الحيدسه عشره . وسب ادرى كيف يطبق انا اللقاء فى المدرسه حتى هذه السن ؟

— اننى احب الدراسة .

— اما انا فاحب الحياه !

وضجكت ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحصر ثوبها الضيق القصير عن ركبتيها انحبارا شديدا ، واستطردت :

— وليس المرء فى حاجة إلى المدارس كى يمارس الحياه .

فهى فى حد ذاتها مدرسة كبرى .

— لست ادرى ماذا تعنين بالحياه ؟ نحن جميعا نحيا إلى

ان نموت !

— لا تصدق هذا الكلام ! ان بعض الناس لا يحولن بل

يحبطون بها وهناك وهم انصاف موفى

— ما هي الحياة إذن في رأيك ؟

— يا لك من شاب مضحك ! إن الحياة الحبيبة هي الجمع بالجاهل .. وأن تشبع رغبات سببك . وهذا شيء تعرفه أنت جيدا بالطبع !

— المشكلة الكبرى أن هذا الشيء بالذات هو الذي لا أعرفه !

وبدا عليه الارتباك لحظة ، ثم استسم فحده . وقال باندهاع
— عليك أنت أن تعلميني !

فابتسمت وتطلعت إليه نظرة غزل وتذلل . وقد طبخت إلى أن الحديث قد انصرف إلى المساء ، إلى الذي كانت بسنده . راحت بمقاديف معه أطراف الكلام ، كما يقادف اللاعب الكرة ، النصح يوضح .. مكان لطيف الكرة أحيانا ، وأحيانا أخرى يملأها ، عبر أن هذا الأحد والرند استغرق وقتا طويلا جدا .. ثم نظر أنطون إلى ساعته وعجب لتأخره وعدم إحساسه بمرور الوقت ، وقال لها معتذرا عن عدم استقامته البقاء :

— نحن نتعشى في السابعة .

— وأين نقيم ؟

فأخبرها بعنوانه ، واقترحت عليه أن يسيرا عبر المشرع في ذلك الاتجاه ، إلى أن يصلا إلى محطة السيارات العامة . ونهضا ، فحمل لها مظلوف معطفها ، وسارا فوق الحشائش

النامية ، والعناء تهادي بجواره فوق كعبها العالين ، وأردافها المثلثة ترتج تحت ثوبها الضيق .

وكان كثيرا ما رأى مثيلاتها في الأفلام ، ولكن لم يخطر بباله أنه سيسير بجوار إحداهن في يوم من الأيام ! وكان إحساسه بها غريبا ، لأنه لم يسر بجوار فتاة من أي نوع من قبل ، حتى ولا بنات عمته ! .. وعجب ماذا عسى أن يقول « لندي » لو رآه . ثم تسائل عن سننها ، وخطر له أنها تقاربه في العمر .. وأحب أن يعرف على وجه التحديد ، فسألها :

— متى عيد ميلادك ؟

— في يونية . شهر الورد . ولهذا سموني روزا . وانت ، متى عيد ميلادك ؟
— في أكتوبر .

وأراد أن يستدرجها ، فاستطرد : « في أكتوبر الفاسم سائم الثامنة عشرة » .

— إذن فانا أكبر منك بأربعة أشهر !

— عجا . لقد ظننتك أصغر مني !

— والمضحك أنني ظننتك أكبر من سنك الحقيقية . حسبك في العشرين . ولذا عشت لأنك لم تزل تلميذا في المدرسة .

ووصلا إلى محطة السيارات العامة ، على الطريق الرئيسي المجاور للمتنزه . وفي فترة الانطلاق خطر « أن سألها

(م) - الطريق إلى بئر سبع ج ٢

وحلق لندلى في وجهه ، ثم قال : « هل تأت حقاً ما خيل
إلى أنك قلته » ؟

مايتسم أنطون انضمامه عريضة وقال : « لكل شيء أول
كما تعلم » .

— وابن عثرت عليها ؟

— أنا لم أعر عليها . هي التي عثرت على وأنا جالس على
معد في المبره العام ألتاح كتاباً في الاقتصاد السياسي !

ثم اندفع خارجاً ، وترك لندلى فاغر اللم ، والمعلف
الفرمري — دليل المغامرة الخرافية — لم ير في يده !



— V —

وبعد نصف ساعة من ركوبها السيارة العمامة ، كانت
الفتاة التي دعت نفسها باسم « روزا روزالدو » جالسة في
حانة تروى تفاصيل معامراتها بجملة على مسامع صديقها
العزيزة « الس مائير » . وكان للأنسة مائير هذه صدر بارر
على غرار صدور نجوم السيمما ، وعيان سوداوان بثقلها
الكحل ، وهي في لحاية والعشرين من عمرها ، أي بها أكثر
من صديقها « روزا روزميرج » — مهذا هو اسمها الحقيقي
بسمه واحده . ويعمل « الس » في قسم الأشرطة والاسطوانات
بمحرر لبيع أدوات الموسيقى ، ويحال بمسحها وثقله . ويأمل
أن يتزوج من « لين » شقيق روزا الذي يشاركها في الميول
الثقافة والميول الصهيونية ، وقد تعرف إليه عندما حضر
إشرا ، بعض الأشرطة والاسطوانات . وكان العامل الأكبر في
حادثه باليسه لها أنه يحطم بالهجرة إلى تل أبيب قلب
الصهيونية بالناس . فلم يكن في ذهنها شيء آخر لديها من
الرجل إلى « الوطن » ، إلى « إسرائيل » ، مع الرجل الذي
تحبه !

ومن أسف أن والدي « لين » كانوا لا يشاركان انهما أحلامه
الصهيونية ، فقد ولدا وشأ في لندن ، ويعتبران كل بلد غير
احتلرا أرضاً أجنبية في نظرهما ، والقومية في اعتقادهما
شيء ، والدين شيء آخر ، وقصري طرهما إلى مسميها انهما
لندنين دينان بالمعتبة الموسوية .

واجب ايمنها رورا علم تكن عبر هذه المسألة اهتمامها . ملا
الدين بعثتها ولا الوطن . وسدى فى بطرما مكان لطيف لآهيا
الغته . وذا كانت « نى » و « نى » بعتر بها حبيبة نعل
او « صخله » ، وابلان ان نخب يوما ما شاب صهيونيا بحبيب
محبوبى هى أيضا بالبالى للصوتيه . ولكها اللبلة وهى
جالسة امام نى تحتسى جرعات كثيرة من شراب « الحى »
الهوى ويروى لها قصصه اسجلها لها للهدى . عرس فى لى
العام ، سببت آلاما شديدة لصديقتها ، لانها زادت ابتعادا
عن الأمل المنشود لها .

— لقد قلت له انى بلغت الثامنة عشرة فى برنية المساضى ،
فقال لى إنه كان يحسبني اصغر من ذلك سنا ! وقلت له إن
اسمى « روزا روزانو » وأن أجدادى من اصل اسباني !

— هل حننت ؟

— او اننى قلت له إن اسمى « روزا روزنبرج » فكان من
الحذر أن يعرف لى ، ولم أكن مبعدة للحارة بذلك .
ولكنك لا تسطيعين تقدير هذا الاحساس لانك لم تترجميه
ولائك أيضا لا تعرفين جنسيتها !

فقالَت الأنسة ماير بمرارة : « لعله عربى » ؟
فنظرت إليها روزا بدهشة وقالت : « رباه ! كيف تصنى
لأن تعرفى أنه عربى ؟

— عندما قلت لى إنك أدمنت لعسك ذلك الدماء الاساسية ،
أدركت أنه فى الغالب من اصل له صلة ببلاد الأندلس .
ولكن أهو عربى حقا ؟

— تقريبا . . أنه فى الواقع فلسطينى . وقد روى لى كيف
انظروا — هو وأسرته — للخروج من بلدهم فى سنة ١٩٤٨ ،
وكيف خسرت أسرته كل شيء بسبب ذلك ، وأن هذه التكنه
قصت على حياة ابنه بعد ذلك بوقت قصير . والحقيقة انى
أسفت كثيرا له . .

— أسفت له ؟ أهم الذين بدؤوا بالحرب والصردار .
انصحك يا روزا ألا تذكرى شيئا من هذا لأخيك !

— لست أبالى . فهو جذاب جدا . وسوف أقابله مرة ثانية
يوم الجمعة .

— آه ! انتظرى إلى أن يكتشف أنك يهودية !

— سوف لا أخبره !

— ولكنه لابد أن يكتشف الحقيقة فى النهاية .

— وهبى أنه عرف ، فهذا فى ذلك ؟ ليس من موجب
اطلاقا فى نظرى للعداء بين اليهود والعرب !

— لا تكونى ملهء إلى هذه الدرجة يا رورا ! لا تقابلنى
بعد اليوم . مانه — عاجلا أو آحلا — سيكتشف أنك يهودية ،
وعندئذ سينقلب حسه لك إلى كراهية ومقت . ثم ما حنوى
هذه المغامرة على كل حال ؟

— ماذا تعنين ؟

— أنه حديث السن جدا . وحتى لو لم تكن حديث السن
جدا فلن يمكنكى الزواج على كل حال !

— ومن الذى يفكر فى الزواج ؟ انى اريده صاحباً وحبيباً
لهو واسمع شهابى معه بعض الوقت . وهذا كل شيء ! ثم
إنه صارحنى باعتزامه الذهاب إلى الأردن فى نهاية السنة .
آه لو رأيته ! إنه لطيف بصورة لا يتخيلها العقل . . . وسادح
حدا . . . وبرى . . . واعتقد أنه لم يسبق له قبيل مباد فى حياته
حدا . . . بصورى انه قال لى ان على ان اعلمه كل شيء عن
الحب ، وعن الحياة المرححة اللذيذة ؟!

وضحكت روزا فى سعادة ، وادفنت : « وأراهنك على انه
سيتعلم سرعة فائقة . فهو يبدو ذا استعداد هائل فى هذه
الناحية . . فشكلك يدل على ذلك » .

— يدل على ماذا ؟ على الفكاهة ؟

— آوه . . بل على الموهبة الجنسية !

مقالت لهما البس محذرة : « ستزحس تنفسك فى المداعب
يوها ما من غير أن تشعرى » .

— ولماذا ؟ لقد حظيت بالاتصال بفتيان سرير حد . .
تل كما تعلمين . وبعضهم كانوا من ذوى الخبرة الواسعة
حدا فى هذا المداعب ، وكنت أعرف دائماً متى أوقفهم عند
الحد الذى أريده أنا !

— آه ! إن الفتيان المحبرين — كما تسميهم — جانبهم آمن
من جانب هؤلاء السذج المتدينين . لأن الجرب لا يدمع بحمل
وحماسة فائقة كالساذج . والمسألة كلها فى حملها ذات طابع
جنونى فى نظرى . فما أكثر الفتيان اليهود من حولك الذين

تستطيعين الاستمتاع معهم ، وهم أولى بالاستمتاع بك من هذا
العرسى . ماذا مثلاً عن ذلك انسى ، لدى لتقيد به فى المرقص
يوم السبت الماضى ورتقص معك حلول الوقت ؟ ما اسمه ؟

— دايفيد ماركس ! أنا لا أريده . فهو معروف أكثر مما ينبغي ،
ويتخيل إليه أن كل فتاة واقعة فى غرامه . وهذا هو السبب
فى اننى رفضت أن أعطيه موعداً لأخرج معه . ولكن هذا انسى
بعضه عنه فى كل شيء . فهو حجول . . ولكنى سوف أعلمه
الحرارة فى الغرام !

— هذا ما يخيل إليك ! ولعله هو الذى سيعطيك دروساً
لا تنسينه !

ولمحت عينا روزا ، واكتسى وجهها بابسامة مشرقة وثابت
« آه ! كم سيكون لذياً أن أتعلم منه إذن ! » . . . وبعد لحظة
ميسدت وردف : « انه جيسر ' ظريف ' مالب ! ولكنك
لا تتركين هذا لأنك لم تريه . عدينى أنك لن تخبرى « ليس » .
انسى ! » .

لا ربحى . . . لا احب . . . ولكن هذا لا يضر من
الواقع . وهو ان المسألة كلها لتسب على ما يرام . وسيسدح
سبب يوماً ما .

— أنتم ؟ ولماذا أنتم ؟ أنا انوى أن احظى بمتعة معه ،
أن يحول بينى وبين هذه المتعة أحد !

وفي الموعد المحدد ، يوم الجمعة ، وصلت الفتاة إلى المكان المجهود . هذا أنطون حاسي . وإلى جواره دراجة ! وعبدت أدبت دهشقتها بصعددها ، صارحها بأنه وجد عقبات في مسيرته الخروج من البيت ليصافه ، إذ من بعد هذا ، بريد التوجه إلى بيت مدرسه الحاصل السابق بركة هسدا المساء ليسوضحه بعض بقط لتعريفه الاقتصادي ، وإد محس . دول على العود إنه يريد أن ينتهر هذه الفرصة للثتره معه على قدميه بعض الوقت في ذلك الاتجاه ، فلم يجد بدا من بريد أنه سيذهب على دراجه ليمر أولا ببيت رمله بدلي الذي يسكن معه فترة العطلة السابقة في سويسرا . . . وأضافت أنطون

— وكان هذا صيحيا يا روزا ، لأنى كنت قد أخفيت عنده ممتلكك انوائى من المظار ، ولاندلى من إحصاره . وكل ما هنالك اننى لم اكس عارما على الذهاب بالدرجحة ، بل بالمال .
العالمة .

وباولت روزا ممتلكها من ده قائلة : « ولكنى لا . . .
أخفيت المعطف عند زميلك ؟ » .

— لأنى لو أخذته إلى البيت عندها لكان على أن اجيب عن مدة أسئلة : فأذكر لجدى وجدتى كيف تعرفت بك ، وكيف انت ستقابل مرة أخرى ، وهى أسئلة لا احبها .

فاستاءت روزا بعض الشيء ، وقالت بامتعاظ : « اليس في وسعك أن تغادر البيت إذن من غير أن تقول لونها . . .
انت ذاهب بالضبط ؟ » .



ولمب عينا روزا ، واكسى وجهها بانسامة مشرقية وقالت :
« آآ ! كم سيكون لذيذا ان انصلم منه اذن ! » .

... ليس هذا سهلاً ، لأنهما يحبان بطبيعة الحال أن يعرفا كل شيء .

... أنا شخصياً لا أقدم أى تفسيرات عن تحركاتى . حسبى أن أقول أنى خارجة !

... لعلى لو كنت أعيش مع أمى لم اكن مضطراً لهذا . ولكن جدى وجدنى من الطراز القديم كما تعلمين .

... يبدو هذا ... أرى أن السماء ستطر ... وفتحت المظروف واستخرجت معطنها الواقى من المطر ، وساعدها هو على ارتدائه ... ثم قالت بتذمر : « لولا انك احصيت معك هذه الدراعة فكر فى وسعها ان تدخل داراً للسینما » .

... ليس فى وسعى على كل حال ان اتأخر فى الخارج إلى موعد انصراف السینما .

... لم يكن هناك إذن ما يرر الحضور . اليس كذلك ؟ ... اليس يكتفى ان يتمشى قليلاً ؟

فنظرت إليه نظرة محنتة ، ولكنها تقدمته صوب اجمة الشجر الكثيفة فى ركن المتزه . وكان الهواء ثقيلًا ، ومحملاً ببوارى مطر ، ووجدت رورا صاعدة فى الدرس على المشب الكثيف يكعبها العالى وحذائها المكشوف ، لأنها كانت قد سبت نفسها على قضاء الليلة فى ركن خلفى متوار من دار السینما ، كى تحظى منه بما تشاء من العناق والمسات الغرامية الساخنة .

وتوغلت به بين الشجر ، ثم نظرت حولها وقالت له : « فى وسعنا ان نجلس هنا » .

... ولكى لا ارى مقاعد ...

... لا ميب فى الجلوس على الأرض ... هكذا !

وبجوار شجرة بلوط صغيرة جلست ، او بمعنى أدق اصطلمت على الأرض فوق كومة من الأوراق الحامدة ، واستند لبطون دراجته إلى شجرة بعدة ثم جلس على الأرض منتصب العانة بحوارها ، وهو معجب كيف تقدم فتاة « محترمة » على شيء كهذا . فالكان قذر . وهناك مجموعات من الفل ...

وبسرعة خلعت روزا صندوقها ذا الكعب العالى وهى تقول بهجة سب

... لقد كاد المشى يقتلنى ... والآن اقترب منى قليلاً ! وقبل ان يتحرك كانت هى قد التصقت به وألقت برأسها على كتفه . ولكنه حسب أن كل ما ترمى إليه هو أن تتخذ من كتفه وسادة ، فلم يحرك ساكناً ... فقالت له فى إقراء : « ها أنت ترى المكان خالياً إلا منا نحن الاثنين » ...

... فعلاً ...

ولم يحرك ساكناً أيضاً . وكانت تنظر على الأقل ... فهما كانت درجة براعة ... من مد ذراعها عندلوى عنقها وبجسب منعقلها . واضطرت لحظه ، ثم قالت له بصوت جاد : « البسيت ليدك أنه فكره عما يصعبه العلى بقاءه فى حلقه » .

فارتبك أمام هذا السؤال المباشر المفضوح ، وضحك ثم قال : « هذه مسبة جديدة بماها بالنسبة لى . . وكل ما يساورنى الآن أن أنال منك قبلة . . إن كان هذا ممكنا . » فرسب وجيها إليه وفات بهدوء : « ولماذا لا تنال يدى » عطوفا بخراعه بغير قوة ، وقبل خدها . وكاد يبعد عنها وقد فرغ من « مهمته » تلك ، وإذا به تساول : « جديس من أنت ؟ » ولهم شغفه التهايا بقله صاربه ، وقد دست لسانها بين شفتيه ، فكذب أنفاسه سهو من الدهشة والحماس . وأصبحت دوار !

وأجرا رميت مهبط عن ذلك المذول الذى لم يربط معه ، راعبه . وقبله : « لم يلد الذم » ولكنك طلع ، طمل ثم : « — أوه . أنا أسف جدا إن كنت خيبت ظنك .

وعثت أصابعها داخل حلقه يده ، واستخرجت من حدر أشعائها وحديث منها نفسها قويا ، ثم قامت له . « هذه أول شهة نالها من ماء » ؟

— لم أقبل فتاة تبكك إطلاقا .

.. ألم تحذرت نفسك بتقبيل فتاة ؟ !

.. كلا . . إلى أن التقيت بك لم أفكر فى ذلك . لم يخطر ببالى . . بالحقيقة أن أمور حسنى كنت مضطربة جدا منذ غادرنا فلسطين .

— أحسب هذا هو السبب فعلا . لقد مرت بك تجارب سيئة .

— سيئة جدا . عظيمة . ولم تزل تتراعى لى الكوابيس إلى اليوم حول هذه التجارب المروعة .

— ولكن هذا كله قد انتهى الآن ، وفى وسعك أن تريح أعصابك وتبتلع بحياتك ، وقد صارت لك صديقه !

مرد على ابتسامتها بابتسامته وقال : « نعم . هذا شيء رائع حقا . مانى لم استطلع منذ عاركك أن امسك فى أنسى . سواك ! »

— يجب إذن أن تفكر فى طريقه نجديع منها معا على صورة اومى من هذه ، واتمسك ، وأدعى للانطلاق على مسجدينا . ما رايتك فى يوم الأحد ؟ !

مهر انملون رأسه بوحوم ، وقال : « لا مساعدة من المفادرات فى عتلة الأسبوع ، لأن أبى يحضر لديسا ويحب أن يكون بالقرب منها . وإذا لم تستطع بحضور مساء السبت ، ذهبت لمعادني فى المذبة بعد انتهاء الحصاد فى الكنوية صمماح الأحد ، ثم نخرج للنزهة وقضاء الوقت معا » .

— انذهبي إلى الكنيسة ؟ وهل أنت متدين ؟

— لست أدري هل أنا متدين أم لا . ولكنى أحب الذهاب إلى الكنيسة . إلا تحبين أنت الكنيسة ؟

— أنا ؟ أنا لست أرثوذكسية !

— طبعاً ، أنت كاثوليكية ، لك . أدرك .

— أنا لست مسيئة لأى كنيسة أتبعه حقيق .

— لقد بدأ المطر يشتد - يجب أن تنصرف الآن من هنا .

— نعم - وأنا أيضاً يجب أن أعود على كل حال .

ونهض وأنهضها . وكانت متأكدة أنه سيمهز فرد ،
النصاقها به هكذا عندما وقعت كي يقتلها ، مستعيداً ما تعمد
من قبالتها الساحنة ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وتركها
حائفة واتجه سوب دراجته كي يحضرها .

وعند موقف السيارة العامة أعطته الفتاة رقم تليفونها ،
وأفترقا من غير أن يتفقا على موعد آخر ، فقد قال لها إنه يجب
أن ينصرف إلى الدرس ، ثم هو لا يستطيع أن يتقدم من الآن
مموعد لأنه لا يعرف متى سيكون الخوف مناسباً للقاء . وقد
اقترب الامتحان . .

رغم أنهما لم يتفقا على موعد ، إلا أنهما لم يمتلحا
وزمان مناسبين للخلوة السعيدة التي تحلم بها . .

— ٨ —

وكان يحسبون يدرك أنهم لإدراك أن هذه الفتاة روزا ليست
من الطرار الذي يمكن أن يلتقي به في دوائر آل منصوري أو
آل ملهى . وهو يعلم تمام العلم أنها من النوع الذي يطلق
عليه حديثه وصف « السوقية » ، أما أمه فلم يكن متأكداً ماذا
عسى أن يكون رأيها . وحظر له مجازة أنه في الواقع يصرف
عن تفكير حديثه أكثر مما يعرف عن تفكير أمه . فهو على علم
بطريقة مآثرها بأشياء كثيرة ، أما أمه فخيال إليه أنه لا يعرف
عن رأيها في معظم الأمور إلا أقل القليل !

وقال لنفسه : « ليس في وسعي أن أخبرهم ، لأنهم لن
يستطيعوا فهم حقيقة الموقف . » « لنأدلى » وحده يستطيع أن
يخبرهم . ذلك أنه من الصعب وحده . من كل يوم . . لا يدرى
روزا على الإطلاق ، لمقتضيات الرسمية في التقديم و . . .
وما إلى ذلك . ولكن لنأدلى لا يحيط أسرته علماً بمشواراته ،
ويعمد إلى الكذب والخداع في علاقاته تلك ! » .

روزا ! ما أحلاها . . شعرها الغزير الحالك السموا .
سبب السوداوين الواسعتين ، والابتسامة التي تذكره كثيراً
بـ لقد كان في هذه المقاتلة خجولاً مرتبكاً ، ولكنه
في المرة القادمة . . لن يتهيب ، ولن يستقرب الموقف ، وسيبقى
بلاء حسناً !

سيحصل بها بسموت في الأسبوع القادم ويحدد معها
موعداً ، ثم يذهبان معا إلى السينما كما اقترحت هي . . .

الظلام الدافئ الذى يكتنف قاعة السيتما لن يشعر بالحر الذى شعر به فى العراء . سيجلسان فى الصف الأخر وتشابك أيديهما و .. و .. يتبادلان القبلات ! لقد رأى الكثيرين يصنعون مثل هذا فى السينما . وكثيرا ما نياهى صديقه لتدلى بأنه صحب فتيات إلى السينما ولم يروا شيئا من أفيلم المعروف ، لأنه كان يمثل معهن ندما حاصا جدا !

وعاد إلى البيت مائتي حده خائبا حزين ، ابتاعه لمعجوه مشغولا بمهمة الطلبة التى يسببها « الإسهاء من قريه التاميس » ، فلما رآه جده داحلا طوى الصحيفة « وساء » « هل تمكنت من استجلاء النقابل الفلمجيه مع مستر جونز ؟

— نعم . وشكرا لك . أين جدتى ؟

— فى الداخل تصنع الشاي .

— الجو حار جدا لا يصلح لتناول الشاي . ما أشبه هذا بجو أريحا الخائق . . لقد أزعجتني جدا ، ولدا اعتقدتني سأوى إلى فراشى فورا ، إن سم تكرر لذلك مانع . . لآسى أعسر بصداق . ولابد أن الرمد هو السبب فيما أعانيه .

فأجابه جده وهو يستخرج غليونه من جيبه ويشرع فى حشوه :

— ربما ..

وعندما أوى روبرت ملهى إلى مخدعه بعد ساعة ، حاليا إلى نفسه ، استلقى على فراشه وراح يحرق فى الظلام ، فكبرا فى الشخصين اللذين رآهما يخرجان معا من النوبة الصغيرة وهو يتعشى هذا المساء . . وكان هذان الشخصان : تلك الفتاة ذات الشعر الفاحم والمعصف القرمزى الواقى من المطر . وقد تابط ذراعها . . ابن أبنته !

كانت الفتاة تضحك له ، وكان انطون سعيدا بمشيتها بقربها ، حتى أنه لم يلحج جده قبل أن يتوارى بصره وراء شجر . ثم سبيل إلى اعرب حانة مطلب . . ما مردوخة من الوبسكى ، ليطلب على المساءة المادهه الى ملى مر . . ز ا ن ملاسى اشعور بالمعاجه حتى حل محله شهور بالادب . . . الشدند . . لماذا مغل به أنتون هدد لمعل . . لا مسدد بعد المدهه فى شلى هذا لمصنف القومرى المصح الذى . . . له . . . وحده على احداه عد المسره . . ولدا ادعى انه حميه إلى مركز الشرطة لأعل المصحح أنه حميه إلى باب رملا لندى . . ثم استقرده به هذا المساء . . فقد قال إنه ذهب إلى هسالك بمعدى خرج اليوم . . ولكن لماذا بكل تلك الأكاديب والجدع . . . أن هذه ول مره بشعر ميهيا بالاستقاء والتادى من حميده . . وها هو لا . . يحلق بمعدى نفسه فى الظلام ويحاول أن يجسد تعليلاً لسلوك انطون . . وبدأ ينتقل له المعاذير :

— لم يكن فى وسع انطون أن يخبرنى بأمر هذه الفتاة ، لأنها قنصة تصيدها من الطريق . وهو فى قرارة نفسه يعلم أنها شبيهة غير صانسه له . غير لائقه فد . . ولأنه يعلم . . مما لو

- ٩ -

كانت « الس ماير » مخلصه في وعدها الذي قطعتنه على مسيح بلالينوح بن شالوروا . ولكن من لاسرار نوعا بعد تدخل في تكوينه « احماص كاوية » ، تحفر لنفسها مسارب تتسرب عن طريقها من الخزائن التي تودع فيها داخل السريرة .

واضح ان (الس) اكبت في حالة « انسجام » تام مساء ذلك اليوم من ايام السبت ، وهي هناك مع « س » ، شمدف رورا . يوم سبعة اصدق الواقع على شاطئ النهر في ريسبود . تحدثي كاسها الثانية من « الجين » . تلك الكاس الثانية اخرى . ول الس دائما انها جعلها في حانة « انسجام » تام !

وس عاد « لين » من ياحدها في سيارته الصغيرة في نهاية بل سبع . في حالة اعتدال الطقس . ورك الزمارة في رحبة الفندق ، ويجلسان في الشرقة مطلقين على النهر ، ويشربان بفسحة اقتداح مفرغة من اشراق النور . ثم رعاة المعلم بالمندق فيتناولان عشاء طيبا . وكان من اهم ما يحب « لين » إلى « انس » انه يبق في صحبتها سخاء . وبعد العشاء يستقلان السيارة إلى تسل (رتشموند) الذي يكووه انهمال ، وه حديقة واسعة . وهناك بتركان السيارة ويأخذ « لين » من حقيبة السيارة معطف مطر ويد . يتروى البطانية على الأرض في مكان منزو بين الأشجار الملبنة . واما المعطف الواقع في الحظر عنانها ملتحفانه معا في



فيغرش البطانية على الأرض في مكان منزو بين الأشجار الملبنة

حالة هطول الأمطار ، وينصرفان وهما في حالة « الانسحاب »
 — من الخير والطعام الجيد الذي يذيقه أوصالهما — إلى
 « الواس » من « العناق » و « اللهب » الحامية الوطيس . وهذا
 « العناق » الساحر « هو العصر البرنيسي في برديح نيبه »
 باستمرار .

وكنيت « الس » ترهو دائما بأنها تعرف في جميع الأحوال
 أس بعب ، وأس توف « البئر الآخر » عند سد . أس
 بعب « المسال » لها « حجومه » بعب « وان » الحيرة سد
 في أحيان كثيرة مفرقة ، ولكنها تنهد وتحمده الله على
 « السلامة » في آخر لحظة ! ولكنها تعلم أن الحزم — مهما
 كان قاسيا على نفسها — صبر لازم وواجب . لأنها تعمل ،
 الحفة تطمع في إرغام « بن » الرزاق « جا » ، كما كي
 يتخلص من هذه « التحريمات » المؤلمة . فإن عاجلا أو آجلا
 سيصرح لين :

— لم يعد في وسعنا الاستمرار على هذا النحو !

وهي واثقة أنه في حماسة الجرمين سيعملن حطبتهما
 رسميا . . . وهي تتوقع أن يحدث هذا الإعلان في أي مساء
 من أمسيات السبت .

وكانت تأمل كثيرا أن يتم هذا في هذه المرة بالذات ، لأن
 « الس » كان « مشغولا » للعانة مد عادرا المندق . ولم تكف
 يده عن تحسس أعطافها اللدنة في المواضع الحساسة وهو
 يقود السيارة ، قبل أن يصل إلى فندق ريتشموند كالمعادة ،

مما حرك مشاعرها . وحين تتحرك مشاعر امرأة نحو رجل
 ما فإن تقوى طويلا على الكتمان .

وفي منتصف كأس « الجين » الثانية قالت له بعموض :
 « إن تستطيع أن تخبر من هو آخر خلان أحتك روزا ! » .
 ولم يثر فضول « لين » ، لأن أخته روزا تصاحب عددا
 لا حصر له من الخلان ، الواحد بعد الآخر ، وقال بلا ملأه .

— ليست لدى أية فكرة فليعا . وإذا أهتم بأصحاب
 أختي ؟ . . إنها لم تكن جادة في صلتها بأي واحد منهم . .
 وإنما هي سمات ولمسات عابرة في ركن معلوم من المسما أو
 في المقعد الخلفي من سيارة أحدهم . .

وضحك لين وهو يقرص موضعا في جسم « الس » ، وقال :
 « أنا أعرف أختي الصغيرة . . وجبها لهذه « المسألة » ! » .

— سواء كانت جادة أو غير جادة ، فسيدهشك ، بل
 سيذهلك ، أن تعرف هذا الصاحب الأخير . . !

فدا عليه الاهتمام وقال في توحش : « لا تقولي لي إنه
 متزوج ! » فقهرت الس وقالت : « متزوج ؟ ! بالعكس ! إنه
 لم يزل تلميذا في المدرسة . . عمره ١٨ سنة ! بل أقبل
 من ذلك ! » .

— هل انتقلت أخيرا إلى « خاطفة أطفال » ؟ ولكن لا شأن
 لها بهذا ، ما دام هذا اللون من المتعة يروقها ! هيا اشربي
 بقعة كأسك كي ننهض إلى قاعة المسائدة . .

فأمسكت « ألس » بكأسها ولكنها لم تشربها ، بل قلبتها
في يدها وقالت بلهجة ذات معزى : « أنت لم تفهم عرضي »
بعد ! » .

— بل فهبت ! روثا تصاحب تلميذا صغيرا . وماذا في ذلك ؟ هي حرة فممن تختارهم لمعتها الخاصة !

— ولكنہ لاجیء . . من فلسطین !

— آية ؟ ماذا تقولين ؟ هل هي التي قالت لك هذا ؟

— وكيف كنت خليقة أن أعلم !

— لا بد أنها جئت !

— هذا بالضبط ما قلته لها !

١٠ — وماذا قالت لك ؟

— قالت ما معناه ان اليهود والعرب ينبغي الا يتباعسوا .
وكانت تشعر بمنتهى الحلف عليه وعلى قومه !

۳۔ تعطیل علیہ ؟ علی عربی ؟

— لأن أسرته فقدت كل ممتلكاتها عندما اضطرت للهجرة
من اللد .

وشربت النبي كأسها وقالت له باسمه : « اتلا نهض ؟ » .
ولكنه في هذه المرة كان هو الذي تباطأ ، وبدا وجهه شاحبا
جدا من غرط الفضب ، وقال لها سنف : « أياها ما هو أهم !
لأن أنه يصب في أذنيها دعائيه المسمومة ضد الصهيونية
وضد إسرائيل ! » .

— ولكن مالنا ولهذا ؟ اننا لا نستطيع شيئا ، فهيا بنا ناكل .

وفهضت ، فلم يجد بدا من النهوض بحركة عنيفة ، فاستطاع
كوبا على الأرض لشدة تخطئه وهو يقول : « ألا نستطيع
شيئا حقا ؟ سترين ما سأنعله ! »

وشعرت « أليس » بالخوف الشديد ، لأن روزا لن تغفر لها هذه العجائز . ولكنها هربت خفية وعابت لنفسها « ما كان لها أن يروح لي بهذا السر على كل حال » ، وهي تهرب إلى صهيونية مقبلة مخلصاً لمبادئ وعقيدتي ! أوه .

سب اثني أو ثلث أسبوعاً ولم أفتش سرها ، ولكن الكاتب جعلها الكتمان مستحيلاً . ثم لحقت « لين » . . وكل شيء !

* * *

وحسبهم «لين» على أن يحظى الموضوع مع زورا هذه العلة
بإحداثيات. ولم محض في أن موضوع بحر على مادة إسماعيل ،
ولم ، حاول مرة واحدة أن يبدده حلسة بحث ومرش إلى مادة
البحر من ركني «الس» كعادته .

وبعد لفيمات قليلة كتب عن العليسم ، وقال : « أتمتع
بالحياة ، شيد . لن أصلح للذهاب معك الليلة إلى الحديقة .
الآن في غاية التصنع . ويجب علي أنه حال أن أذهب إلى
البيت مبكراً هذه الليلة » .

— ولماذا ؟

— كي اكون في انتظار هذه العاهرة الصغيرة عند مودتها !
ولكني لا أعتقد أنها تقابله في أيام السبت .

أب لا تعرفينها إذن ! أنها لا يمكن أن تدع يوم السبت يمر من غير أن تتبرغ في أحضان فتى يروقهها أو ولم أراه . . . تخلف عاداتها هذه سبيلًا واحدًا من بين آلاف السبل !

- ١٠ -

والواقع أن روزا روعت ارتجاعا شديدا ، حتى أنها بعد لحظة التحدى العريرية التي أعدها لأول وهمة إراء أحيها . دوعا عن حقها في الحرية الشخصية فيما يخص علاقاتها بالجسد الآخر . على حسب تقاليد بيتها ، ثابث إلى حمه أخرى مماثله لها تماما ، فتعهدت بالألا ترى « انطون » بعد ذلك أبدا ، فيها عدا مصادره أخيره بوعده ميب . سد أن أحاسا حلس شاند ، عبي بومعه الحازم . محسها على الأبراد حتى ولا بك المره - وعال لها :

— خبريني أين مستقاليينه يوم الاثنين وسأذهب أنا إليه وأشرح له الموقف . وسأعرف كيف أشرحه له جيذا !

وكانت قد اتفقت مع « انطون » على اللقاء على ذلك المقعد المواجه للبحيرة — في المنزه العام — في منتصف التاسعة . وكذا مد اللقاء يوم الأربعاء الس . اتق عيد محله السير ب اعلمه . وبوحها على العور إلى دار قريه للسيسيما . وكانت « الحمله » باحثة جدا ، فلم يريا شيئا من الفيلم لغرض انهماكهما في « عرض خاص » بهما ، وبلغ من هذا النجاس انهما اتفعا على المقاتلة عند السحرة يوم الجمعة ، وذهبا في هذه المرة إلى الغابة .

ولكن الحلو في العانة هذه المرة كانت محتلة تماما عن أول حلوه لها هناك . لقد رايل انطون حياؤه تماما ، حتى لقد شعير الاثنين أنه سيصعب عليهما الصبر على اتساع مده عطشه

وملث « الس » يدها من تحت معرش المائدة ، وضعتها على محده ، محاولة استدراجه . وقد مالت إلى الأمام بشدة فوق المائدة ، مبدت له من منحه صدره العارية مقاتنها التي كان يتحرق عادة إلى اجتلائها ، ولكن سحته المردة لم سد عليها التأثير بما يلمس ولا بما يرى ، فقلت : « هيا تسمع منه دعاية ضد الصهيونية ، متى مقدورث أن يصحح لها فكره » سهولة بعد ذلك . من غير أن يفسد علما لدنا الاسوعيه بهذه الصورة » .

— يا لك من حمقاء ! أليست امرأة ؟ هل تعتقدس أن النساء المبروه شاك يمكن أن يعبر سمعها لما يقوله أحوها ، إذا كان مناقضا لما يقوله خليلها في لحظات الانسجام ؟

— أرحوك . لا تكن معرطا في قسوتك على روزا ! إنها مسألة هيئة جدا . . هيئة للغاية ! إنه تلميذ صغير !

. لا مائدة من هذا الكلام كله ! هذه مسألة حطيره جدا . ويجب وضع حد لها . وسأضع حدا لها .

— لست أدري كيف يمكن هذا ! ماذا ستفعل ؟

— سأرومها ! سأفزعها بحيث لا تجسر بعد ذلك على الاتصال به .

— إنها ستكرهك إلى الأبد ! لن تفقر هذا لك !

— لا حيلة لي في هذا . ومن ذا الذي يبالي بالحب أو الكره ؟ إن في الدنيا أمورا أهم من هذين بكثير . .

الأسودع - حتى يوم الاثنين الذي مواعداً على ألف فيه امام
البحيرة ، ليكررو زيارة الغنسه - وعد باب أخوهم لا سرب
المرام في الغراء ، والحق ان امتثال كل منهما ما حر ، و
بالمنه الى جدهما بين أحصائه بمعنى ذو ، كل بالغ ، حـ
ولكن لم يكن من ذلك الصبر مفر حتى يوم الاثنين .

وها هو أخوها « لن » يسرع منها هذا الوعد الفاسع ، لا
تره ولو ذلك المرة الأخيرة ، ولكنها صهبت بينها وبين نفسها
على ان تذهب للفناء تلك المرة ، ولو كان في ذلك هدوءاً ، هذا
كلمت من أخوها مكان اللقاء !

وخرجت يوم الاثنين من البيت في ساعة مبكرة جداً - قبل
خروج أحبها ، حتى لا تلتقيها - ، فالتفت في المدة ، عاء -
تتلمذ حـمـسـور انطون ، وهي موحدة ان تكون الدائمة
الواشبه « لن » قد ناحت أيضاً بكنى التلاهي - ، و
بأحدها « لن » وقد جاء مقسلاً الى هناك ، ولداً حرصت على
البواري حلف محبوعة من الأشجار ، وهي في حالة يرثى لها
من التوتر العصبي ، إلى ان حضر « انطون » قبل الموعد
المضروب بفضح دقائق .

ولكم أدهشه ان يراها تهر له محاة من وراء الأشجار !
ولكن الدهشة لم تلبث ان أختل مكانها للفرع عندهما رأى
الإمارات البادية على محيطها وهي تقترب منه ، وسألها :
« ما الخبر ؟ هل هناك ما يرومك ؟ » .

« نعم ، كل شيء ، كل شيء علي غير ما يرام . هيا بنا
نمضي إلى الغابة . » وهناك سأشرح لك كل شيء .

وبعها إلى الغابة وهو يغالب القلق ، متصنفاً المرح ،
وسألها : « ما المسألة ؟ ولماذا تسرعين هكذا ؟ » .

— كي نخفي .

— نخفي ؟ ممن ؟ ومم ؟

— من أخى . . .

وزادت من سرعتها ، فلم يسعه إلا أن يلاحقها . وفي جوف
الخميلة الملساء هذا من روعها قليلاً بعد ان نلمت حولها
واطمأنت إلى أن احداً لا يتعقبها . وسألها مرة أخرى : « ولماذا
يجب ان نخفي ، من أخيك ؟ » . ولكنه لم يترك لها فرصة
للجواب ، بل جذبها إليه على الأرض المعشوشبة ، وأغلق معها
بقلعة منهوكة أصابت رأس « رورا » بتوار ، وظلت بعدها مدة
نوا من بيورة الأناس ، لا حاشة لها على الكلام ، فقال لها :

— لقد قضيت هذه الأيام على أحر من الجمر من شدة
الشوق إلى الاجتماع بك مرة أخرى ، أيتها الفاتنة الحلوة
رورا !

وتشبعت به في وله ، وشرمت تبكى وهي تقول له : « آه
يا حبيبي انطون ! كم أنا شقية معذبة بسبب حبك ! » .

— ما المسألة ؟ ما الذي يزعجك ؟

— لقد أزعمني أحي على أن أقطع صلتى بك ، وقال لي
إنني لو حاولت مقاتلتك بعد الآن فسوف يتعفى أو كلف من

بمعتبتي ، إلى أن يعرف محل إقامتك والمدرسة التي تدرس بها . . وسيفريك !

— بضربني ؟ ولماذا ؟ هذا شيء عجيب . ثم إن ضربى ليس مسألة سهلة إلى هذا الحد . فمى وسعى أن أقاتل قتالا مشرما عند اللزوم . ولكن ما هى المسألة من بدائنها على كل حال ؟

فقمعت روزا دموعها ثم سأله بصوت خافت : « هل تحبني حقاً يا أنطون ؟ »

— طبعاً . وأنت تعلمين ذلك . هل نسيت بسرعة ما كنا بنف في المرة الماضية ؟

— لا يمكن لأى شيء أن يغير من هذا الذى بيننا . أعبى له مرض واكتشف أنى لست بك أمى ملاحرب إمامك أبى
هى وإن اسمى ليس حقيقة « روزادو »
قطرة دم أساسى واحدة تحترق فى عروصى
ذلك كله

مناول إحدى راحتها وطلع عليها قلبه حافية . وهو يقول .
« يا لك من نفاق مضحكة ! هل اختلقت كل ذلك حقاً ؟ » . . .
فأومات برأسها إيجاباً مضحك وقال : « وإن لم تكونى « روزا روزادو » ، فمن أنت إذن ؟ » .

— أوه ! ستكرهنى إن قلت لك من أنا فى الحقيقة !

— ربما كرهت الاسم إن كان مظليماً ، ولكن ذلك لن يحلنى على كراهيتك . هيا . هيا . قولى ما هو
من تلك الأسماء اللهاء المضحكة

فقالته فى صوت ينم عن اليأس : « روزنيرج . . اسمى روزا روزنيرج . . وأخى « لين » صهيونى متعصب . وهذه هى المسألة بين أوليا إلى آخرها . . وقد ألغى شخص ما بالعلاقة التى بيننا ! » .

فاستقط يدها من يده وحملق فيها غير مصدق أذنيه : « هل أنت يهودية ؟ »
عينها فى عينيه ، والجزع اليأس يستول عليها ، وقالت بصوت يكاد لا يسمع :

لا حيلة لنا فيها ولدنا فوجدنا عليه آباءنا !

ولما وجدته صامتاً لا يجيب : أردفت : « إن كان لا يهمنى الم عرسى . فلماذا يهك أن أكون يهودية ؟ »
.
وراحت أصوات الطائرات السوداء الصغيرة تدل فى أدب
وهى تزداد اقتراباً وانقضاضاً !

وأحس فجأة برودة سرى أو صانته ، وأرسلت معاذرة .
وحاول أن يرمم نفسه على أنظر إليها وهى مسترحية بحوارها على الأرض . وشعرها المالح الحرير الحميل مضطرب كالمسألة .
نوحيتها الجميل الشاحب
بحرارة من الذبوع
عزيراً عليه مد لحظات قليلة ، ثم بعد الآن يرى له معنى
أو يحرك ساكناً !

واستجمع شتات إرادته ليفول شميماً : « المعروف فى الظروف العادية ألا يهمنى شيء من هذا
الطريق إلى بئر سبع ج ٢ »

في نصفه الأسفل ، لأغراض لا تحصى ! .. كذلك نهض النطون وراح ينفذ الشوائب عن ثيابه ، وهو ينظر إليها بشروء .. أهده حقا هي الفتاة التي رآها تتر من حلف الأسحر سد آمل من نصف ساعة ، فقفر قلبه لرآها ورقص رقصة الجبور والبهمة والحبيس ؟ أهده هي الفتاة التي كان مدد مدد من معدودة يرشف الرصاب المستطاب من بين شفتيها اللذنتين وهو يحسب أن لذات الدنيا ألقت إليه مقاليدها ؟

لكم يبدو له كل هذا الآن وكأنه حلم أو سراب ! فيها هي رمو إليه كسيرة الحاطر - ساحلته عنه لأنه رأى في عينيه - وبسمة - يا للعجب ! لا يستطيع أن يشعر محوها من شفه مقه أو رحمة - فكل ما يحسبه إزاءها هو الاستنكاف والقنوط .

ولما هما يعودان إلى الأراض المكسوة في المنزه - قال له : « لم يدر بخلدي في وقت من الأوقات أن هذا اللقاء مستحيل لقاء الوداع - أو أن الوداع سيكون على هذه الصورة - وكب أواميل دائما أن أحد سعرة استبذع أن أهد منها إلى استمرار علاقتي - رغم كل شيء - عبر مخابية بعض شقيقي - لأنني كنت أحاك لن ثبالي بأنني يهودية ما سمعت تحبني حقا » .

— يؤسفني أن هذا مستحيل !

وعندما صارا فوق الممر المعروش بالرمل ، قالت له : « لا تات معي إلى محطة السيارة العامة - لا حاجة بك إلى ذلك - فمن

بعضنوا وحسبي ، ولم يفعلوا بنا ما فعلوا . أما وقد عرفت الآن حقيقتك ، فمن المستحيل علينا أن نستمر في علاقتنا هذه . والذنب ليس ذنبك طبعاً ، ولكنه حفظنا العائر .. ملي مكوي في وسعي أن أرى فيك بعد الآن « رورا رورادو » التي حسبنا . وأعيده أن ينظر إليها ، فأرخص نظراته وثبتها على كعب حذائه . وعلى خنمساء صغيرة سوداء كانت تدب على الأرض بسطاء وسعد ثيه من الأعنسل الجامعة والأوراق المبد . . وأسر ب من أسبل تدب أيضا في ذلك التبه . . إبه البه . . التيه . . التيه . . في البرية !

وبطلت إليه رورا وقد قمسا قلبها وتحجر ، وغنما تكلمت كانت ادماعلها وعما بها اسمها بالشواط المذهب . . بل اسمها باسمعاب . . تلك الصعاب التي رمت بها المراه الإسماعيلية المجردة أمام يوم الرحيل المشؤوم عن اللد . . وقالت له بمرارة : « إبه السمسم صدامسميس ! » .

منعمر إليها ناسي وقال : « هذا مستحيل طبعاً . لأن العرب أيضا سمميون ! » .

— وإن يكن . . فأنتم تكرهون اليهود على كل حال !

— ليس لأبهم يهود . كلا . فقد كنا لا نكرهم قبل البكة . وكان في مستطاب يومئذ يهود كثيرون ، وفي مدرستنا كان اليهود يدرسون مع المسلمين ومع المسيحيين حننا إلى حسب بلا تمريق في المعاملة . ثم جاءت البكة ، وتغير كل شيء !

وبهضت قائلة على قدميها ، وهي تنضو الأوراق الميتة عر ثوبها المصدوع من القطن ، ذلك الثوب الذي تخيره وأمسها جدا

الخير الايرانا احد جهارا ، مربيا كان « ليس » كلها لنا هـ ا
او هناك . فقد انقسم ان يبتلك صرنا لو وقعت عييه عليك ! « .

— أنا لا أخشى أخاك !

ووقت لا تتحرك ، ثم قالت بصوت متحرج : « هو
الوداع إذن ؟ » .

— نعم !

— ليكن إذن ما تشاء ! وداعا !

وأدارت له ظهرها فجأة من غير ان يمد يدها أو يمد يده .
وراحت تحت الحصى إلى محطة الساراب العامة ، من غير ان
تنظر حليمها . . ولم يرقها انطون وهي منصرفه ، بل سار على
مهل وهو مطرق إلى الأرض . كان الاسى يملأ قلبه ، مروحيا
بالحنق والصيق الشديد . وراح يسأل هل سيجد في نفسه
الشجاعة الكافية كي يخبر وليدا بهذه المفارقة ؟

وإذ ذكر وليدا استولى عليه فجأة حنين جارف إلى الأردن . .
إلى فلسطين . وساوره ندم صارم لانه في الاسابيع القليلة
الآخرة لم يهكر في فلسطين . . لقد أكلت هذه العلامة
الحسبة المشبوهة انكره الوطنية عن ذهنه ، فائتوت و
مؤخرة رأسه !

أجل ! لم يستطع في هذه الاسابيع ان يفكر في شيء سوى
رورا ، واستولى عليه احساس بالائم والحزى من نفسه .

وانحس ان وليدا لو عرف عنه هذه السقطه لاحقره أشد
الاحتقار . . لا لانه احب مناه هذا الحب الشديد ، بل لانه سمح
لهذا الهوى ان ينسبه الهدف الاكبر ، بل الأوحد ، لكل عربي
فلسطيني جذر بهذا الاسم . . وذلك الهدف هو تحرير فلسطين
.. وهو يتمثل بالنسبة لهما في طريق بئر سبع . .
وعندما اقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النعدة
المصوغة بمصمخ « النابيس » . . وحامره احساس غلاب ،
ولكنه احساس اورغد راحة سديدة ، بأنه سيعترف له الآن
بكل ما أخماه عنه من قبل !

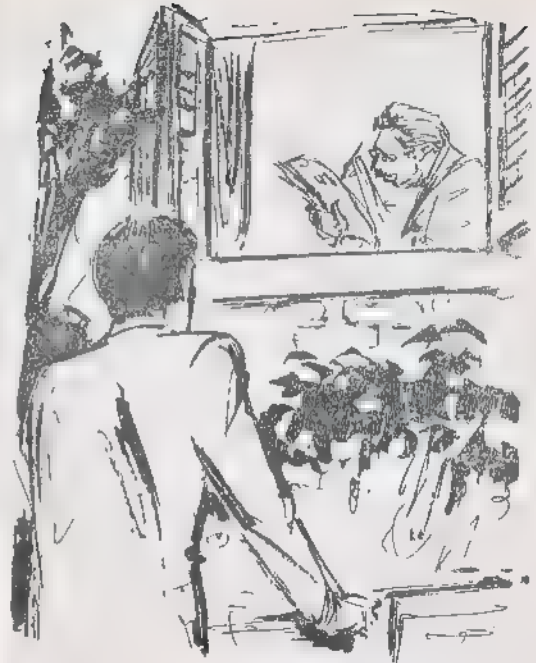


- ١١ -

اكتب اطلبون على الدرس والاستعداد للامتحان ، عسى ان تجد في ذلك ما يصرفه عن التفكير في هذه العلاقة الموسمية ، ولا سيما بعد ان سري حده عنه ، وصارحه بأنه كان يصرف ما يجرى وراء ظهره منذ البدايه تقريبا ، وكاشفه بأنه رآه مع النساء بعد اول حلوة لهم داخل القاعة ، ولكنه أثر الصمت والانتظار إلى ان يوح له سحبيا من ثناء نفسه بما هناك !

وأدى اطلبون امتحانه نجاح . وظللت به والديه ان يمتن حرا كبيرا من عطائه معيا ، وسره ذلك ، فانه لا يرهف عطفه بحسبها ، لأنها مشموله في الغالب بأعمالها . وهو لا يشعر بأنه يعرف عنها الكثير ، بخلاف حبه اللذين يقصصان لومت كله معه ولا يدعسان به حلوة أو استقلالاً بالمعنى الصحيح . ومع هذا التناهد ، كان ثمة شيء عميق بينه وبين أمه . شيء أعمق من الرابطة التي بين الأم وابنها الوحيد . وهذا الشيء يقوم في جوهره على التجربة المشتركة والمحسنة المشتركة - محنة الهجرة ، والمسيرة الميئة في البرية ، وأعداء البكة وأثارها ، بما في ذلك آثار الاغتراب في أريحا .. ووما حائلها الحبيب بطرس منصور +

وفي الأيام الأولى التي قضاهما في مسكن أمه الخاص ، توسط لندن ، كتب اطلبون إلى ولد يقص عليه ما كان من أمر روبا .



وعندما اقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح « التايمس » ..

« إن حدى يعتقد انى كنت قاسى على انفسى - حاربا و معاديا . و لىسى كنت كذلك . ولكن ما حبلتى فى ذلك . و من سكر هذا امر الحاسم إلا إجراء ضرورى لا محيص عنه . لئلا كانت ابدعته المعاجزة التى كنست لى سكره عتبه . اعدت . إلى وجدائى المسألة الكبرى بكل ما فيها من مواراة و قسوة و عذاب . . لم اعد أحسن إلا بان تلك الفتاة واحدة من ذلك الجنس الذى اعتصب ارضنا . و الذى وجوده و طبعه . و شدة داء بلا رحمة . و بلا حق . و بلا ضمير !

« و أنا لم أبج بهذه المسألة المخيرة لأحد مسوى حدى . و سواك . و كنت قد أخبرت زميلا لى فى الدراسة ببدابة هذه العلاقة . و لكنى كتمت عنه نهايتها . و اكتفيت بقولى له اننا امترقنا لمعدن الامتياز سياسى استطاع . . . و احصاه انى شرب عاقر عن اندرس أو المسمى فى أى شى . و أنا فى تلك الدوامه التى جرفت حواسى مجاة . تصور انى لم أكن قادرا حتى على التفكير فى فلسطين !»

« أما الآن - وقد انجلت هذه الغاشية - فانا غريسة ندم شديد و خذل شديد . لأن مثل تلك العلاقة الحسنة استطاعت أن يستولى على رماهى إلى هذا الحد . أعنى إلى حد سبب قضية فلسطين و خطة بئر سبع . و إلى حد انى خدمت حدى و كذبت عليه . و هو الذى احبه حوى لآبى الراحل .

« و اعجب ما فى الامر انى لم استبشع الكذب و الخداع

و أنا فى غمرة ذلك الهوى الجارف . بل وجدتهما أمرين طبيعيين جدا . أما الآن فأنى لا أتصور كيف أتدتمت على ذلك . . و بهذه المناسبة لم يخطر ببالى - فى هذه السنوات الأربع . و أنا بعيد عن الاهتمام بالفتيات - أن يكون . . علامة بقاء . أما الآن وقد حدثت لى هذه المعامرة . فوبى تسأل . اليس لك فى الأردن فتاة تهواها ؟ و لى كن ذلك سحيفا . مهل تعرف كيف يهتم بغيرك و يحبطك الوجدان . و مكارم و مطالبات كالعادة . و أنت مريسة هذا الهوى !

« و بعد أيام كتب و اصف مع والدنى موقف خسر لندن . و سطر إلى ما يسمى « البركة » من ثحنا . حيث بمرع سمى مادى . من شىى ابناء المعامرة حوى بها . مختلفها منها سيارات اوفى لسمى . إلى كن مكى فى إنجلترا . و ربا سسقية سويدية بمرع حوىه من الاحشاب . و إلى حوارها سمىه بسماء . صغيرة حديثة جدا . و تمسألنا من أين عساها جاءت . و إذا ما بسبب انها سسقية إسرائيية بحله بالمواصح . و لى لعل اعلمنا و نحن فى مسهى الانم . لآنا لاخطب و جود كومات كبره فى الاسابيع الأخيرة من الترمال « اليافاوى » فى متاجر لندن . و قد يكون جانب منه مجلوبا من مزارع آل منصور بالذات !

« و تحاول انى احيانا أن تشرح لأصحاب المتاجر و السائعين حقيقة الموقف . و قد حدث من هذا القبل داب مرة اننا دعنا معا لشبرى بعض الارهار لتريين سقة مات . ولكن الأدهر

أننى احباريها والذى كانت من موع مادح الثمن ومسمى « حلابوليس » ، وكذلك سالت عن مصدرها فعيل لها ابني . من « إسرائيل » ، فالتت أمى للمرأة التى تتولى البيع . إن فداحة الثمن سبب للإحجام عن الشراء . ولكن كونها من إسرائيل سبب ادعى للاعتناء عن شرائها ، فاسرائيل كما تسمونها ليست سوى فلسطين المحتلة . وأنا شخصيا أرملة فلسطينى كان واحدا من بين مليون عربى لاجئ طردوا من ديارهم واغتصب اليهود وطنهم ، من غير أن يفكر أحد في مصيرهم ، ولا حتى في تعويضهم . مع أنه ما من مال - مهما كثره مقداره - يمكن أن يعوض لاجئ عن وطنهم وشخصيتهم . القومية » .

« ودهشت المرأة لهذا الذى سمعته ، وقالت إنه لم تكن لديها أدنى فكرة من هذه الأوضاع . بل لقد استعملت كلمة « ملغم » في تحت ما حدث من اليهود . ولكن عندما مررت من هناك بعد أسبوع ، وجدت أرملة را حديدة من نساء « الحلابوليس » في المجر ، ووجدنا من اليرثال « الداعوى » أيضا في قسم الفواكه القابع للتجر نفسه !

« وأنا اعتقد أن معظم الناس هنا في إنجلترا لا يعرفون حقيقة الصهيونية . ولكن الأدعى من هذا أنهم لا يتناولون حتى لو عرفوا تلك الحقيقة المرة ، لأن اليهود هنا منشون في كل مكان ولهم اتصالات كثيرة ، أما العرب فهم معدون عنهم ولا يعرفون عنهم شيئا إلا بالسماع ، أو عن طريق التخيل ، باعتبارهم سكان صحراء ورعاة إبل ! أو على الأكثر أهل مغامرات على طريقة أفلام ابن الشيخ !

« لجل ، ليس من السهل على الإنجليز أن يحسوا بإحساس العرب ، لأكثر من سبب ، وفي مقدمة هذه الأسباب . الجهول ! . أما اليهود ، فلهم نفوذهم في صغوف الصحفيين والكتاب وملوك السيئنا ومثليها ، وبين الرسامين والموسيقين ، وهم يضامون عينا بينهم على الدعاية لسلالنتهم ، وإيقاء العرب وراء الستار !

« وأنها لطاهرة عحيه أن يسود لحول العرب على هذه الصورة وإلى هذا المدى المذهل . في الوقت الذى صسرت منه رقعته العالم ، وصارت القاهرة وبيروت ودمشق على غمد ساعاب قتيله من الطيران الجارى من لندن . وفي الوقت الذى ربطت فيه الإداعات والصحف أرجاء المسكونة .

« قريبا يا وليد ساكون معك ، فميسحون لى بمساء عس الميلاد القادم في (رام الله) ، وسأذهب إلى (بيت لحم) لمرارتي أبيض . ما كنت في رام الله عس حشوري ذهب إلى بيت لحم معا . وأنا في الحق عاجز عن التعبير لك عن مدى ثلغى على العودة إلى فلسطين . . »

وبسرعة جاءه رد وليد على هذه الرسالة ، وبشيء من التلويل ليس مبهودا في وليد : « سرتنى انباء عودتك المرتقبة في شهر ديسمبر ، وأرجو أن تحطرنى بموع وصول طائرتك ، وسأحاول أن ادبر وصولي إلى هناك في يوم ٢٢ ديسمبر أو بعده بقليل ، لأننى منذ ٨ أكتوبر - وهو بداية الفصل الدراسي - وأنا أدرس في جامعة بيروت لأمريكية ، وعطلة

عيد الميلاد عندهم تبدأ في ٢٢ ديسمبر ، ومنتها أسبوع واحد .

« وسأقتضى معظم العطلة في (الخليل) من اقاربى ، ولعلنا نحظى بقضاء بضعة أيام معا هناك ، وإن كان من غير المطر أن يتمكن من معادرة تلك المنطقة في هذه المرة إلى حيث تعلم .

« أما سؤالك عن الفتيات ، فأعلم انى لا اهتم بشأنهن إطلاقا ، مانا شديد الانهماك في دراساتى ، وفي ذهنى مسائل كثيرة جديدة محلا عن هذا كله . واهى لأسف لأن يدانك في الحب كانت متعثرة على هذا النحو . وأتمنى لك حظا أسعد في المرة التالية، وإن كنت اصحك نتاحيل هذه « المرة التالية » إلى ما بعد عام الدراس ، حتى سحنت العقيدات التى بدخل الاضطراب على أى شيء يمكن أن نقرر المضى فيه .

أقد أحلفك، شاربي هذا الحلفت بجامعة بيروت الأمريكية . وقد ارميت بهذا الخطاب دسورة حديثه لى ، حتى تنسى لك التعرف على شخصى عندما رانى في المطار ! . . مع السلامة .

« وليد حسين »

- ١٢ -

معنى انطون اسايح كثيرة يعلم على يدي حده روبرت طوى المدرس للعبان والعامم معهم . وطوى العامم مع الصم واليكم عن طريق الإشارات واللمس باليد . واقترض من صديقه مسقر جونز - وهو مدرسه الخاص السابق - عددا كبيرا من الكتب في النريسيه وعلم النفس ، كان يطلبها منهم ويردها ليقترض كتبها غيرها . وكان مسقر جونز يوجهه بعضا إلى محطله كثير من الكتب التى ساعدت على تشكيل ذهنه وتوسيع آفاق تفكيره .

ولم يكن يرجعه عاطفيا في تلك أسبوعه سوى والدته . وكم معنى لو انه استطاع أن يصنع شيئا لأرسلته ، وأشر أرسالها كان مادح المثنى هذا . لأنها لا درسى ناول من سنده عن قصيمه على قضاء تلك السنة في الأردن . وكانت هذه الفكرة قد ازدادت الجاها على ذهنه ، وسند معنى ذلك الصدمه العاطفيه في علاقته برورا . وكانت أمه قد وافقت على حمله برعمه أو شبه برعمه ، إلا أنها قالت له : « سمرح العارة - إنها تمنى لو غير رايه قبل فوات الاوان . ولكنه رد عليها بأنه يعمم سلما أن رايه قاطع وشهينى . ولن يدأ عليه تعديل .

ومائلها ذات يوم في ضراعة : « لماذا تقفين هذا الموقف المعاص لسعري إلى موطنى ؟ » . . ولم يستطع أن يقول له . « لأنك كل ما بقى لى من طرسي ، عود عودت إلى لارن مكتف

هناك بك المسبة بطولها ، معني ذلك انك خرجت من حبيبي ،
عاشا كائلا ، أو ربما إلى الأبد . » ولكنها انصبت بأن يفرج
له ببساطة : « لأنني سأشعر بالوحدة والوحشة بدونك » ،
مقال لها محرر : « ولكني سأكتب اذيك باستمرار . وسيكون
في وسعك ان تأتي لمتابعة عسرة من الوقت معي هناك ،
عندما تظنن ان بعتلة من مملك المصحف المكتبي » .

وبإصرار قالت له : « ان استطيع العودة إلى الأردن . ان
استطيع » ، فأجابها في انبساط : « لكم شعريسي بالشمسا ،
وتجعلي المذهب عسرا على حدا ، مع انك تعلمين به
لاما لي من ذلك » .

— اني اسمعه حذا لانهك ما عزبري . وادت بلسعه الحال
صاحب الراي الاخير فيما ينبغي ان تصنع ، وإن كان ذلك
لا يروقني ، ويجثماني عناء نفسيا شديدا . فكان أمينا مع
مفتي ، وجسع ب يوحسه لك عقلك وصميرك . ولكني في
الوقت نفسه لا يسعني من جاسي إلا ان اكون أمية مع نفسي .
ويوحني من هذه الآلهة اصدقك القول ان رحيلك سيب
بي انما شديدا .

وتقبل عيد ميلا « أنطون » المسلمين عشر كانت أمه قد
حدثته برغبتها ورغبة جديده في إقامة حفل له ، لأنه سوف
لا يكون حاضرا في أعياد الميلاد ورأس السنة ، ولا في عيد
ميلاده التاسع عشر ، وسيكون هذا الحفل آخر حمل بخصره
قبل امتحان الفصل الدرامي الثاني والآخر في مدرسته . وهـ

الامتحان الذي يرحو ان يمتوق فيه كما يمتوق في امتحان
الفصل الدراسي الأول . وقد شجعهم على ذلك ان يوم
عيد ميلاده يوافق يوم السبت ، وهو يوم مناسب جدا
لدى الإطر لإقامه الحفلات الخاصة . وسيكون في وسعه
ان يدعو من يشاء من اصدقائه وزملائه الطلاب .

وضحك أنطون ليداري عروقه عن تلك الحفلة قائلا :
« الحقيقة اني بعير استقاء بالمعنى الصحيح للكلمة » . وسب
راغبا في ان تقام لي حفلة في هذه المناسبة ! » . واشتد
الحذل بينه وبين جدته وأمه . . . إلى ان بدخل حده في المناقشة ،
وأبعد الموقف بقوله : « لماذا لا بدع الفتى بحدس طريقه » .
الاحتفال بعيد ميلاده على النحو الذي يهواه ؟ فهذا عيد ميلاده
« هو » بعد كل شيء ! » .

وراحت ماريان تنظر إلى أبيها تارة وإلى ابنها تارة أخرى ،
في استياء واضح ، ولكنها غلبت على أمرها فمسبت انقلون
— قل لنا ماذا تفضل انت ؟

— أفضل ان يسول العشاء معا في اسبب شارع بده . .
الأربعة فقط ، ونقسم ميها بيننا رضاحه من السبد العوار .
ولكن الجد قال بلهجة حاسمة : « ليكن ، ولكني أصر على
ان يكون شرابنا في تلك الليلة الشيمانيا دون سواها » .

ويبدو ان ماريان كانت مصمة إثميا بيليا . . .
فرض شيء من الجو الاحتفالي الاجتاعي على تلك أمه .

فقامت - من غير أن تخبر أحداً بعزمها - بتوجيه الدعوه إلى زوجين من أصدقائها هما آل براون ، لقضاء السهرة في البيت بعد العشاء في ذلك اليوم . وكان « ديزهوند براون » هو مدير الإعلانات في دار صحافة الشرق الأوسط التي تعمل بها ماريان . وهو في نحو الثلاثين من عمره ، وسيم الشكل ، واسع الأفلاخ في شئون الشرق الأوسط . وفي خلته صب وابتسامة - في نظر ماريان على الأقل - أما زوجته « سوري » لمديته على مستوى عال من استقامة ، ويكفي ما لديه حمية جدا ، ومن ذلك النوع من النساء الذي يستخدم للزينة !

وكانت ماريان قد دعيت مرارا كثيرة في بيت هذين الزوجين . وهو بيت صغير أنيق ، وسبق لها أن دعيتها كثيرا في صب والدتها . ولكن لم يسبق لانتظرون أن التقى بهما لاني حضورهما إلى بيت آل ملى كان في المدة التي قضاها في معسكرات التدريب ، محطرا لها أن عده هي المناسبة المناسبة لدموتهما ، للاجتماع به والعزم إليه ، وأن وجودهما سيبرد من بهجة السهرة ويخرجها عن المألوف .

ولم يرحب انطون بالفكرة عندما علم بهما في يوم عيد ميلاده ترحيبا حارا ، ولكن جده سرى عنه قائلا : لا عليك بى . لمن تعد نفسك مطالبا بالاحتشاد في بحر الاحاديث مع سسز براون ، لأنها لا تفقه أى نوع من أنواع الحديث . أما روحها فبحيد لكلام ولا بعيد الاصعاء . وسكون على خير حال وأنت ملتزم بالصمت ، تصعى لما يقول الزوج ومة عينيك من الزوجة الحسناء ! » .

وقطعت الجدة حاجبيها وزجرت زوجها ، طالبة منه أن يستعمر ربه لما تعود به من الاعتياب ، وانهمته بأن أشمها بيا صنعت إلى رأسه ! . . . قلم يسمعه إلا أن يسكت ويترك راحته إلى المدياح ماذر مانتحه ، وإذا سليات يطرق ويدخل الضيقان .

واستقل انطون المضيفين بحفظ شديد ، ولغت نظائره إسماعيل الروحة الشابة في استهداف الحلى الصناعية البراقة ، وإعراقها في الضمخ بالمعبور المعاده . وإسرافها في امداق اسمائها التي تكتف عن صغين من الأسان الجميله . أما « ديمود » - الروح - فمهم يشعر نحوه انطون بارتياح ، رغم اناسه الشديده ، وانتماساته وتحذفه في بحر رحلة عنقه !

ونشطت الجدة لصنع القهوة ، ودعا الجسد مسز براون بمرحل شيء من المشروبات . فمالب جندل كالانطال : « شهابنا ! ايكم بوسعوب على انفسكم كما أرى ! » . . . فقال بلى وهو مملأ لها كاسها « إن الفتى يبلغ الثامنة عشرة مرة في العمر !

وانتهزت ماريان هذه الفرصة فحالت تذكرها : « ولا تنسى اننا أن « انطون » سيرحل إلى الأردن بعد انتهاء الدراسة لمقضى هناك سنة كاملة » .

وكان تعليق سوري عبارة عن ابتسامة اخرى مشرقة - وإن كانت خالية من المعنى ! - أما زوجها ففتح الله عليه بعاره أراد أن يدل بها على مسعة إطلاعه على سبيل لسرق

الأوسط ، فقال : « سمعت أنك عائد إلى أشد بفاع الأرض
اخفأها ؟ » .

فجابه انطون بغير : « سأذهب إلى (أريحا) فيها أعتقد
لحرد أيسر الحاطة . « أكني في العائت ساقم مع عبي في
(رام الله) قبل أن أذهب لتولى مهام عملي في (بيت لحم) . »

— ولماذا لا تظهر مباشرة إلى بيروت ثم تستقل طائرة
الصباح إلى القدس ؟ اليس هذا أبسط وأسهل ؟

— بل اني افضل الطيران إلى عمان ، ثم أذهب إلى رام الله
عن طريق أريحا بالسيارة . فاسير إلى أريحا في العتمة
الناكر معه بادره . ثم أتي مع صديق لي على أن ألقى
في المدر ثم أذهب معاً لساؤل « أم أول » في أحد محلاتهم ،
قبل استئناف السفر .

وهب حده بحساسة : « الفول ! ما أحلى الفول بالأرغفة
المستدرة العربية الرقيقة ، سواء أكلناه بالزيت واللبون ،
أو بالزبد الطازج ! » .

وأصمت الحسدة في هذه الحصة إلى الطابع حامله أدوار
لقهوة وأجسرح ملبي رحاحه من كونساك « كورمواربه »
لشربتي المعق . ونوى انطون بوزوع القهوة والكوناك ، و
حين راحت ماريان تشرح لضيفتها الحساء « سوزي براون »
صفوه الحية في أريحا ، وكما كانت تستجلب السك
في صناديق من الثلج من (العتبة) .. فصاحت سوزي :

— العتبة ؟ ما هذا الاسم ؟

فقال ملبي : « إنها ميناء على البحر الأحمر . فاليهود قد
اغتمسوا ساحل البحر الأبيض لأنفسهم ، والأردن ليس بها
بحر سوى البحر الميت » .

— وماذا عن بحر الجليل ؟

فقال زوجيا بصدقته . « بحر الجليل يوجد الآن في
إسرائيل » .

فقال انطون بحزم وهو يقيم له آنية السكر :

— بل قل فلسطين المحتلة !

فقال ديزموند بهزيد من الحذقة : « إسرائيل أمر واقع ،
سواء أحيما هذا أو لم يحسد . والأولى أن نكون واقعيين » .

وكان يكلم وقد وسع ساقا على ساق ، وهو يهر قدمه ثداء
الكلام ، وانتباهته الملكمة متقنة جدا واثقة مثل ربادة عبقة
نهايا . وشعر انطون بازدياد بغضه له ، وتساءل بينه وبين
نفسه . ترى هل بكرهه حده كذلك ؟ ولكن الحد لم يكن
يبغضه في الواقع ، وإن كان يضيق به ضيقا شديدا ، وبراها
ثقل الحل . وشعر ساعدا لإهدار الكوناك البحد على مل
هذا الرجل السخيف !

ويبدو أن الشهبانيا التي شربها انطون على العشاء بكثرة ،
رادت من ثوره غصه . وجعلته أشد اندفاعا وحرارة ..
فقال على سبيل التحدي : « بل أنت لاتعنيه منقضي منا أن

نسمى الأشياء بأسمائها !! ووطنى الذى ولدت به اسمه فلسطين . وبهذا الاسم عرف من آلاف السنين . ويوماً - ليس بعيد - سيعود هذا الاسم إلى الوجود من جديد ! » .

وغنم ملهى بالعربية : « إن شاء الله . » . فقال ديزموند بسخافة : « أشك كثيراً أنك سترى هذا اليوم ! » .

« فطبار عقل أنطون ، واندفع يقول : « أن جيل الماسحليين هم فى سننى سيرون هذا اليوم ، لاسما سيمعل على تحقيقه ! » . ثم ارتفع صوته وهو يعلن بضراوة :

« مستهزئ فلسطين على يد الفلسطينيين !

مارتسب على وجه ديزموند علانم التمكة المزوح بالتمك ، وقال له وهو بكسر جمن إحدى عينيه : « على يد جيش التحرير الفلسطيني ؟ » .

« احل . وسيمعل هذا الجيش السرى فى داخل إسرائيل نفسها . سيكون لنا هناك طابور خامس !

« أهو التسلسل الجماعى ؟

« ليس جماعياً . بل تدريجياً . وقد يستغرق ذلك منا بصع سنين .

مالتبت ديزموند إلى كأس الكوبيك وراح يديرها بين يديه ليدمنها ، ثم قال : « أخشى أن تستغرق معلا هذه العملية سنوات تتجاوز المدة المقدورة لميثاك ! » .

وتدخل ملهى فى الحديث قائلاً للضيف : « ينبغي أن تسمح

للشباب بأعلامه الخاصة . ألم تكن لك لعلامك وامت فى الثامنة عشرة ؟ » . « قتال ديزموند بلهجة جافة : « عندها كنت فى الثامنة عشرة - سنة ١٩٣٩ - كانت الحرب قد اندلعت ، ولم يكن لدينا وقت للأعلام ! » .

وتكلف أنطون التثاؤب فجأة ، ثم ضحك وقال : « آسف جداً . ولكن يبدو أن الثمبانيا هى التى أصابنى بالثاؤب . فاسمحوا لى بالانصراف » . ثم صاح الصيغين ، وأمسك بسورى يده بين كتفا يديها ، وقالت :

« ينبغي أن نلتقى مراراً كثيرة بعد عودتك من الإراضى المقدسة . وأتمنى لك سفراً سعيداً .

وأسرع هو بالفرار من هذا الجو . . .

- ١٣ -

وما أن أوى أنطون إلى حجرته ، حتى أحس باردياد حرارة الشمس عليه . فانتزع ثيابه انتزاعاً واندرس في الفراش - من غير أن يتطلب أسنانه كعادته قبل النوم - وكان يقول لنفسه : « كان هذا مكي أن أحس هذه الشمس اللعنه ، عار الحبر منك عدة سنائك » متقول ملا يردد أن سوح به لإسار ! » .

.. واستيقظ في اليوم التالي متأخراً ، وهبط إلى الطابق السفلي ليجد حذنه قد عذرت الست إلى الكنيسة ، أما حده بعد قالت به أنه أنه جرح لدمشي قليلاً ، ثم أردت : « لقد أوشكت الساعة أن تدق الحادية عشرة » .

— آسف جداً ، فقد أصابني صداع شديد ، من تأثير السماتيا في الغالب .

ووجد إفطاره موضوعاً على ركن من المائدة ، وكانت ألوانه سقاه من دير أطمعته العساحية المعدلة . وهي اللس الزبادي . والرسول الأسود ، والجبر والباح ، مائل بنسج ربتونات ثم ذهب إلى المطبخ لوضع لنفسه قحداً من القهوة التركية . ثم عاد ليشرها وهو يقضم سماحة ، وعدند أقلت أنه محاسن قتالته ، وقالت : « أريد أن انتهز فرصة انفرادنا في البيت لأحدث إليك » . « فنظر إليها نظرة ثابتة ، وقال : « بشأن ما قلته أنا بالأمس ؟ » .

— بشأن هذا الحديث عن التسلل إلى الأرض المحتلة . لماذا تريد أن تعود إلى فلسطين ؟ أمي الأحلام الرومانسية اليا معه عن التحرير على يد طلاب المدارس ؟ أهدا ما تدبرانه ، أنت وصاحبك وليد ؟

نحول أنطون عينيه عن عينيها ، وقال :

— أنت تعلمين لماذا أريد أن أعود . لقد أرهقني الحنين إلى وطني ، وليس لي ما هنا أصدقاء بمعنى الكلمة .

— لقد كما متيقين في البداية على أن يقضي هناك عمله صغية بعد أسبوع دراستك الثانوية ثم يعود لقضاء سنة العمل لتدريسي هنا ، لهذا غرت رأك وأصررت على قضائك في السنة هناك ؟ مع ما في ذلك من انفصال عن أسرته ؟

— عني فريد وزوج عمتي خليل وأبنائهما هم أسرني كذلك .

— ولكنهم ليسوا لصقاء بك كوالدتك وجديك .

واحتسى بقية القهوة التي كان يستطيها غاية الاستطابة حين شرع في تناولها بعد أن سمعها يعاين ، لكنها حسارت الآن ولا طعم لها ، بعد أن بردت ، كما يحضر طعم منه . بها طرا عليه من مرارة — واستطردت أمه : « لم يوافني النوم طول الليلة الماضية من شدة قلقك عليك ، بعد أن أطلقت الحبر سبائك ما يدور في ذهنك . ولم يكن عهدي بك أن تتكلم على هذه الونيرة . وهالتي ما سمعته منك عن التمثيل ، وتكون ظاهراً

عربي حامس داخل الاراضي المحتلة ، بين سمع اليهود وبصرهم !
أنطون ! الست ترى هذا كله خيالا ؟ » .

فجعل يحدث في صفحته ، وهو يعيث بسبائته بنوى الزيتون
الاسود الذى اكله من قبل ، وهو يعاهد نفسه على الا يترك
الخمر بعد ذلك ، سواء كانت شمباتيا او غير شمباتيا .
واذكر صواب لتعليم الاسلامه الى بحرم الخمر على المؤمنين
بالاسلام ، وهو لا يعرف مسلمها متديبا في علسطين بقربها .
ولا يحسب وليدا يمكن ان يمسها بيده في يوم من الايام !

وثاب من شروده ليسمع والدته تسأله بحدّة : « هل سمعت
ما قلته لك ؟ اسي اريد منك ان تفهم لى على انك لست تتورط
في مثل هذه المخاطر ان اب سمحت لك بقضاء تلك السنة
في الاردن ! » .

ففهم قائلا : « انى لم اعد طفلا » .

— بل انك من بعض الوجوه لم ترل طفلا . وما كنت
معوما بالامس لا بعدو ان يكون محيطا انما لى . لقد احدثلى
بما تشبهت به امام الضيفين . ومن حسن الحظ ان الجيع
تدور اى ذلك بين تفكيرك لسوى ، وان الخمر هى التى
عشت بعقلك ما قلت .

— وهو طن صائب .

— إذن انت لم تكن جادا فيها قلته عن الطلجور العربى
الخامس ؟



فجعل يحدث في صفحته ، وهو يعيث بسبائته
بنوى الزيتون الاسود الذى اكله من قبل .

— بل إني أراها مكررة طيبة للغاية ، وهي ليست من اختراعى .

قد تكون طيبة حقاً لو أنه أمكن بحقيقتها ، ولكن ذلك غير مستطاع . ولو كان أبوك حياً لقال لك هذا .

— لمست أذكر بالضبط كل ما قلت .

— لا بد لك من أن تعدنى بالا تقدم على حمايته من هذا القبل إن أنت ذهبت إلى الأردن !

— ماذا تعنين بالحياة ؟

— أي عمل تدرئك أنتى إن أفرك عليه . انقسم لى عنى ههنا !

— فنظر إليها وقد بدا غضبه يتحيز في داخله ، وقال :

— ولماذا القسم ؟ ألا تثقين بى ؟

— أما بعد الذى كان الليلة الماضية فلا !

— هذا إرغام وإرهاب لا حق لك فيه !

— بل لى كل الحق ، لأنى أمك . ولأنك أبنى الوحيد ، والبقية الناقبة لى في هذه الدنيا . أمك تسمى ذلك إرغام وإرهاباً . أما أنا فأسميه باسم آخر : أنا أسميه طلباً مشروفاً أوجهه إليك بأن تلزم حادة اللياقة والاتزان في تصرفك . فلما أن تقسم لى على هذا ، أو لا سفر !

ثم نهضت وغادرته يبعث بنوى الزيتون في شرود ، إلى أن نخل عليه جده بعد بضع دقائق فقال له بمرح : « ما رأيك

في قدح من القهوة يا انطون ؟ » ، فنهض انطون واتجه إلى الموقد ليصنع القهوة ، ولاحقه جده وهو يحثو عليه بالتبع ، ثم قال له : « لقد حدثنى أمك بما در بيكيا من معاش مند برهه . وهى شديدة الانزعاج بشبك ، فهيا ارحب باللهما ؟ » .

— ليس أحب إلى من هذا ، ولكنها ترغب أنفى بذلك القسم الذى تطلبه منى إرغامها .

— إنها تطلبه منك لتعلمن عليك . س إنى أنا أيضاً مثلهما ، أريد أن تؤكد لى أنك لم تقدم على أى عمل طائش .

فقال انطون في نفسه وهو يتنسم عبير القهوة المزوججة بالصهايا : « حتى أنت ؟ » ، ولكنه لم يكلمها بعد ، وهم أن يساقط حده ، فتلا : « وما العمل الطائش ؟ من الذى يقرر هذه الصيغة ؟ » . لكنه لم يكلمها بعد ، وهو صمغ القهوة أمامه :

— أقدم لك التأكيد الكامل لهذا الشرط .

— شكراً لك . يجب أن تقدم مثله لو أنك أيضاً .

— سأحاول .

— تحاول ؟

— لأنه يستحيل على ذلك بحث التهديد . ثم أن بى صداعاً من اثر الليلة الماضية ، وأريد أن أخرج للسمر ساعة ، إن لم يكونوا بحاجة إلى هنا .

— قد تكون أمك بحاجة إلى مساعدتك لها في إعداد الغداء .

— سأسألها .

واتجه إلى حجره الحلو وسألقى أمه جالسه عند النامده
تقرا ، فقال لها : « أتريدين منى أن أساعدك في تقشير
البطاطس أو ما إلى ذلك ؟ » .. فأجابته ببرود ، من غير أن
ترفع بصرها عما تقرا : « لا . وشكرا لك » .

— في هذه الحالة أود أن أرحل للنزهة لمدة ساعة ، لا بى
صداعا .

مأجابته وهي تقلب الصفحة من غير أن تنظر إليه :

— عد في الساعة الواحدة .

— أوه ، أرجوك ألا تسخطى على .

فلم تنظر إليه ، ولم تجب .

ولم يعودوا إلى هذا الحديث إلا في المطار قبل عيد
الميلاد ثلاثه اسم ، وكان الوقت مساء ، فتوسلت ماريان إلى
أنها للمرة الأخيرة .

— عدى أنك إن تقدم مع وايد على حماقة طائشة ! عدنى

يا جيبى ، أرجوك !

فتناول اليد التي وضعتها في ضراعة على ساعده ، ورفعها
إلى فمه ، وقال : « كم أتمنى ألا تقلقى بسببى أو تنزعجى لحرد

أنفى سكوت قليلا في ليلة عيد ميلادى الثامن عشر ، وتوهمت
بكلام فارغ ! » .

— هذا إذا ظل ذلك الكلام فارغا ، لأنه وراءه للعمل له !

— ماذا تخالين ؟ ماذا يسعنى أنا ووليد أن نفعل لتحرير
فلسطين المحتلة ؟

وفي هذه اللحظة عاد حده من كشك الكتب والصحف في
المطار وقد اشترى صحف المساء وطائفة من المجلات ، مسأله
أبطون : « ألم يساورك الرغبة في القدوم ليربى هناك ؟ » .

— لست أحب أن أعود إلى فلسطين وهي محتلة منقصة !
.. ولكن أقرىء عنى السلام تلك الشجرة العجوز عند
الكنيسة في بيت لحم . وأبلغ القدس عنى تحية حب .

ولم تكن حديثه معهم في ذلك المساء ، لاسألهما بحاسة في
إحدى اللحان كالعادة . ولأنها حشمت أن تحويها أعصابها في
الهدا .. وقد ودعته في البيت بالعناق والنكاه وتوسلت إليه
أن يكتب إليها كثيرا . أما في مطار لندن فلم يك أحد . لا هو
ولا أمه ولا حده ، بل قلبه أمه وصمته إليها لحظة ثم
أطلقته ، قائلة : « انتبه لنفسك يا جيبى ! » .

أما جدته مصافحه ، قائلا : « على بركة الله وفي أمان الله !
وعد إلينا سألما » .

— إن شاء الله !

وعندما حطقت الطائرة به ، قالت ماريان لأمها :

— اليس عجيبا أن يعود إلى بيت لحم بالذات ! .. لكانتى
به عاد إلى بطرس ...

المسودة

- ١ -

أحس أنطون مفرجه طاعبه لم يشعر بها من قبل والظلمه
 تدخل به سماء (عمان) من فوق اللال الصحراوية الجرداء ،
 حتى لقد نازعته نفسه لأول مرة في حياته إلى العناء والضياع ،
 لينفيس عنها في أعماقه من الجشيان .. فان هي إلا لحظات
 ملائكة حسي يرى وليد واعباده وسعدت انه بعد كل هذه
 الممره الدلليه التي امتدت أربع سنين . لقد امرقا تلمذس ،
 وهما الآن يلتقيان وقد عدا وليد شابا ذا شارب كث .
 وعز أنطون عن تصور شكله ، فاستخرج من حافطه زرده
 سوره ويد الشمسيه التي كان قد بعث بها إليه . وجعل
 يتطلع تأملا تفاسيها .

وحيل إليه أن دهره بلولاً قد انحنى قبل أن يفتح باب
 ابصاره وقد هبط على الأرض وحرث موقها مسافة طويلة ،
 ثم بدأ الركاب في النزول ، مصافحت وحوهم أنسام الفجر
 الزميه قيل شروق الشمس . رام استطع أنطون أن يمس
 وجه صديقه بين رحام المتطرس ، ولكنه راح بلوح عده ،
 موقنا من أن وليدا سيقتبنيه !

وعبر أنطون المسافة بين الطائرة ومبنى المطار ، وأقبل
 المظنون على محص جوارات السفر ، وصافحت أدنيه من كل

صوب تلك الألفاظ العربية ، مراح يتلقمها في سرور واشتياق
 بعد طول انقطاع عنها .

ودخل مع الداخلين ، واستطر مع المستطرين أمام الجاحر إلى
 أن يتم محص الأوراق . وإذا به يفتاح روح عمه خليل داود
 مقبلا من باب جابى وراء حاجر الحقائق ، ومن ورائه شاب
 وسيم ذو شارب أسود كث ، وفتاه ماحمة الشعر في ثوب
 سمى أسبق . . وأنقص خليل داود عليه وضمه إلى صدره
 وقلبه على حديه ، وهو يهتف بمعارات الترحيب والتهنئة
 بالعودة إلى الوطن . وألقى الشاب بمسه يحمص روح عمه
 ويصبح مثل صاحبه سعد عرسته طلقه ، وقد أحسب عنه كل
 صلة له بانطرا ولعبها وعادات أهلها وتفكيرهم ، ولم يقاوم
 جموعه التي انبجست من عينيه .

.. ولم يدر هل كان في وسعه أن يعرف وليدا من تلقاء
 نفسه أم لا ، لأن الشارب الأسود غير شكله كثيرا جدا ، ولكنه
 أحس بأن هذا هو وليد حقبا حين عانقه وهتف بمعارات
 الترحيب ، وصحك تلك الضحكه التي يعرفها عنه جيدا ..
 وبعد أن حفت حدة هذا الاضطراب الذي غمره لأول وهلة ،
 ملن إلى وحود الفتاة ، متقنمت صوبه على استحياء ،
 وسأله :

— ألا تذكرني ؟

وتردد أنطون قليلا ، مصاح وليد :

— أنت ولا شك تذكر « ثريا » !

وصحكت الفتاة عندئذ ، فمطت إلى أسنانها غير المنتظمة .
ولكن عدم انتظامها لم يعد الآن ذا مال . لأنها في هذه السنوات
الأربع قد تعيرت على نحو ما ، فأصبحت ذات جمال ووسامة
.. وأبتسم أنطون ، وقال لها :

— لقد رأيتك في الحفلة التي أقيمت احتفالاً بعودة نصري
زوج بنت عمي من الأسر . وأذكر أنك تهاهين لدراسه
الطب .

— وأنا الآن بالفعل في كلية الطب بجامعة بيروت الأمريكية .

وفي هذه الأثناء كان محض الحفائب قد تم . وانطلق
الجميع في سياره خليل لداوول يقول في مصممه : « يا
سبحان . دخل شيء يبدو في مطار بطول وكده ممتعه من الحده .
وبعد الإبطار صاح أنطون : « لكنني أحلم حلما لا أريد أن أمتق
منه ! » .. فقال زوج عمته : « إننا جميعا في دار السلام
نأريها لعماء عبيد المملاد . مارجو الا بحركه الذهاب إلى
هناك » .

— إطلاقا ! لكم تشوقت إلى أريحا وإلى دار السلام !

وتولى خليل قيادة السيارة صوب أريحا عن طريق وادي
الأردن ، وما يحف به من تلال عدليه . ويطاح مراميه ، كان
قلب أنطون يخفق لكل لمحة من لمحاتها . وخيل إليه أنه وإن
لم يكف في هذه السنوات الأربع عن التفكير في هـ ذه البقاء ،
إلا أن مدى سحرها قد غاب عن ذاكرته . وعندما أخذت
السيارة في الانحدار مند جسر « النبي » اشتد الضغط على

أذنيه فأصيب بمصم وقتي من غرط الانخفاض عن مستوى
سطح البحر . ولاحظ أن ثريا أيضا أخذت تسد أذنيه
بأصابعها ، فنظر إليها وتبادلا الابتسام ، ثم قال : « لابد من
هذا الإحساس في الأذنين والمرء في طريق أريحا ، ولكن عدا
كله ينسى متى وصل الإنسان إلى ذلك البلد الجميل » .

وسره أن توميء برأسها إيجابيا ، لأنه ود من قراره نفسه
أن تحب ثريا أريحا ، وأن ينق معه في المزاج ، سيبها وهو
بحس لقاء ابتسامتها الودية ..

وسمع زوج عمته يقول : « سنبحث من أريحا إلى والدتك
برقية نخبرها بوصولك . ان الساعة الآن منتصف التاسعة ،
ولكنها لا يحاور في لندن منتصف الساعة . ولابد أن والدتك
مستغرقة الآن في النوم ، هي وجداك ! أما بعد الظهر فسيجب
أن تذهب لزيارة مسير شاملي عميد معهد العبيد . وإلى كل
المروض الا تبدأ العمل هناك إلا بعد عطلة عدد المملاد .
وستحب هذا الرجل كثيرا ، لأنه كان من أصدقاء جدك في
صدر شبابه ، ومن معارف أبيك عندما كنتم متقيين في ياما .
أما صديقك « أمين » الأعمى فهو يقوم بتدريس هناك الآن .
وقد نهيت من مستقر شاملي أنك ستقيم معه في مسكن واحد
من مساكن المعلمين » .

وعندئذ سال ولد : « أهى مدرسة الحكوميين الغائمه على
مسح النل المشرف على طريق الخليل عند مشارف بيت لحم ؟ » .

(م . ٩ - الطريق إلى بئر سبع ج ٢)

— أجل . وهى أكثر من مدرسة وأكثر من معهد ، لأنها تعلم المديان المكثوفين الصنائع المختلفة ، وتدريبهم على التكيف بالحياة الإحصائية الإيجابية . واعتقد أن أنطون مسجود فى ذلك خبرة نافعة طريفة .

— والموضع مناسب أيضا كى يقوم بزيارة الخليل كلما شاء .

فقال خليل داود : « إن من يقومون بمثل هذا العمل لا يجدون وقت فراغ » .

— سنقتنع بما هو ممكن .

قال وليد ذلك وهو ينظر إلى أنطون نظرة جانبية ذات معنى ، ولكن أنطون كان فى شغل عنه بالنظر إلى ثريا وهو فى حالة انشغال . ولم يقل وليد ذلك ، ثبت نظرة إلى الإمام فى الطريق التى تتلوى هائلة بسوب أريحا ، وقد علا وجهه المملوء ، ولم يفتح فمه بكلمة إلى أن اقتربت السيارة بهم من غاية الرحلة .

وما أن وقع نظر أنطون على حل التحرس حتى هتف : « هذا هو ! كما تصورته تماما طيلة هذه المدة ! » . ثم التفت إلى وليد وقال فى لهفة : « هيا بنا نرتيقه بعد الظهر على سبيل الذكرى » .

فذكره زوج عمته : « إنك ستزور بعد الظهر مستر شابلى » . — نرتيقه غدا إذن ، يجب أن يقضى وليد الليلة معنا ثم نصعد الجبل غدا صباحا فى ساعة مبكرة ، قبل الشروق .

وفى وسعنا أن نأخذ معنا طعاما منعطر ونعقدى هناك سويق القبة . ما رايك فى هذه الفكرة ؟

— فكرة عظيمة ! وأنا ساقضى الليلة فى بيت روج عمك بالفعل ، لأنه تفضل فدعا ثريا ودعائى للبيت ، كى يحضر الحفلة التى سيقبها الليلة احتفالا بعودتك .

وانتبهز وليد مرصه التفت خليل إلى ثريا لمعول : « شمس ، نهمس فى أذن صديقه : « وسيكون الغد فرصة طيبة للحديث ! » .

ووصلت السيارة إلى بوابة (دار السلام) . وكان الخادم الذى منح البوابة لهم هو بعينه الذى عرفه أنطون فى صباه ، وقد رحب بأنطون أجمل ترحيب بعنائه الساذجة . ولما قربت السيارة من شرفة الباب ، رأى أنطون الأسرة كلها مجتمعمة هناك ، فيما عدا نصرى . . وكان معه فريد أول المسافرين إلى المرحيب به . وبوعت أنطون بارتداد الشبهة من عمه وأمه . . فهو قد اكتسب شيئا من الددانة ، وأبدلهم الشك فى شعوره ، فغدا اثبت ما يكون من الناحية السعيدة . مدرس . أما روحه عمه « ماحدة » التى كانت مائلة إلى الداء طول عمرها ، فقد أصبحت الآن بدينة جدا حقبا ، سيد أن ابتسامتها ظلت دائمة ، ومودتها دافقة .

وعمته « منى » ازداد وزنها أيضا ، ولكن فى الحدود التى زادت وقارا ، ولم يقلل من وسيمتها الشديدة ، وقد ذكرت أنطون أيضا بأبيه .

ونادية !.. ابنة عمه .. كان السنوات الأربع لم تكن بالنسبة لها أكثر من أربعة أيام ، فجعلها كما هو . ولم يظهر عليها أى اثر ملس ، وأطفالها الثلاثة يحمون بها ، ومن الواضح أن راسهم سيبرز إلى الوجود بعد وقت قصير !

ونسأت العمه ارداد طولهر ، ولكنهن لم يرلن على حياتهن ، وإن كانت كراهن شديدة الاحتمال بالانقاة . وكفقر عن ماداتهن في الضحك العصبى بسبب ولفر سبب !

وقتل ابطلون يد عفته وزوجه معه ، وباده . ثم اقد بل البلاهى يوسف ومن ورائه زوجه لعديم مراسم البرحب بلل السيد القديم ، والددمسوع منفرق في عيوبها . وبعد ذلك قام يوسف بمعاقبة خادم آخر بتقديم الأنثى الساردة . في حين كانت المروحة الكهربائية الكبيرة تحرك الهواء الساخن . وقد استقر الجميع في كراسي الضرران السجدة ، ورائحه اشجار السمس ، التي تحم بالشرية ، مالا لجو سمعهم .

ولما رأى انطون ثريا ونادية جالستين معا ، نهض ووقف بجوارهما ، وقالت ثريا وهى تقلب عينيها في الحديقة الجميلة المنسقة . بها فيها من اشجار النخيل العالية ، ونسأت « الهنمية » وجنائل البرمال : « ما أحمل كل شيء هنا » اتد حضرت إلى (أربا) كثيرا ولكن لم يحظر سالى ان مكانا جميلا كهذا يكمن متواريا عن الأنظار بعيدا عن الطريق . إن هذه الدار تستحق اسم دار السلام حقا ! » .

وابتسم انطون مسرورا ، وقال : « كان أى يحب هذه الدار كثيرا ، وبهو إليها دائما كلما امتد عنها ، مهي وأخته انى بشد منها لطيفة والسلام . وكان بروى لأصدقائه

دانها ، كيف شعر لأول مرة بالحب لأمى في هذا الموضع . وفي هذه الدار أيضا قضى آخر أيامه ، ولفظ آخر أنفاسه » .

مقالت الفتاة ، مطلقة : « كنت أعرف هذا ، ولكنى لم اكن أعرف ذلك الجانب الرومانسى من قصة حب أبيك وأمت . ولا شك أن هذا يزيد من سحر المكان وجهاله ! » .

ونطرت بنت عمه نادية إليه نظرة ذات معنى ، وقالت : « لماذا لا تطوف مع ثريا لثريها أرجاء البيت ؟ » .

— بكل سرور ، إن هى شأته !

وعلى الفور نهضت الفتاة وسارت معه . وما أن دخلتا إلى باب الشرمة وصارا وحدهما ، حتى بازعت ابطلوا نفسه إلى أن يتناول يدها في يده ، ثم تذكر أنها هربيسة ، وأنها في فلسطين وليسما في إسرائيل ! وأن حبسهما من احتسراء على العرف السائد أن يطولوا بالحشرات معا ، وليس معهما ثالث ..

والى البت على حاله على حذمه مذكر . فالأسطحة العجيبة الجميلة الفاخرة التى يعرفها جيدا ، لم تزل مفروشة فوق الأرض المبلطة بالرحام . في احجرات الواسعة . وهذه حجرة المكتب الكبيرة الخاصة بالمكتب . وهذه هى كتل الأخشاب تملأ المدافى لاستخدامها في الليالى الباردة ، على نحو ما كانت تصنع امه من قبل . وهما هى رهبة متوسط مكتب أبيه الصغير في حجرة النوم التى مات بها . وعلى رأس السلم طالعته الصورة البصفية التى أوصى أبوه فنان من القدس أن يصنعها لأمه في باكورة زواجها . ولم تكن أمه راضية عن هذه الصورة

فتركها لحليل ، وأسعده أن يجد روح عمه قد احتبط بها
في مكان الشرف المعهود عند رأس السلم . وقال لقريا :

— هذه أمي في شبابها . وكنت في الثالثة من عمري
عندئذ . نلت أكر شكلي في تلك الأيام ، وما كنت لأعرف
أنها لأمي — ولكن أبي كان يحب هذه الصورة . وروح عمي
خيل يحبها أيضا .

وعلى هذا النحو مضى بنجذاب أطراف الحديث والتعليلات
في سهوله ويسر ، وهما ينتقلان من الحرات ، حتى وصلا إلى
حجرته السابقة ، وفقد ، منها إلى الشرفة الواسعة التي تطل
على جبل الحرية . وعن كثف من سمحه كان يشوم بعض
للأحبير صرمت فيه الحيام صفا وراء صف ، في ألوف محدلتها
المحصر !

ووفقا كلاهما في الطرف الأقصى للشرف ، يدوران إلى حمائل
البريقال ، وقد عمدت الحواريه إلى واحدة تحت الشمس
الساطعة ، وأحدث الفتاة تبالا صدرها من ذلك الهواء العطر
منقشمة بحمال المطر ، وعندئذ قال لها تدور : « ها هنا
وقب أمي إلى حوار أمي على امرأة لأول مرة ، حين صارها
بأنه يدعى أن ينروحها . ومن بعد ذلك اليوم صار هذا المكان
أحب بقية في الذنب إلى نفسه . وكانت هذه أشعره كاستما
المفضل هو وأمي ، إلى أن اقعده داء القلب عن صعود السلم ،
فصار ينام في المطابق الأسفل ، ولا يبرحه . كم أتني لو أنه
عرف أنني عدت إلى هنا ! » .

— بل لعله يعرف !

— لعله !

وبعد لحظة تردد ، قال لها : « هل في وسعنا أن نلتقي
أحيانا ؟ في (رام الله) مثلا ، في بيت عمي وعمي ؟ » .

— اني أتوقع في مدة وجودي هنا . وطلب محبتنا الحامسة
عمله ، كعائلة المصح مثلا — أن أزور بيت عمك . ولكم
ستكون مشغولا بعمك في بيت لحم .

— في وسعي أن أتدبر وسيلة للذهاب إلى رام الله بين
الحين والحين .

ولاحظ أنها مشيخة عنه بطراها في ارتباك ، فقال : « أو
كما في إنجلترا لكان من السير جدا أن نغرق على ابتلاقي لموم
بما نبرها على الأقدام في المتنزهات والحدوات . أما هنا
بالوضع مختلف جدا » .

وعندئذ التفتت إليه وأسمت اسمها عريضة ، وقالت :
« مع . جدا . ولكن بعض الناس يستطيعون تدبير فرص
اللقاء من غير أن يصلحوا بالعرف السائد . وأنا واثقة أننا
ستطيع تدبير ذلك لو اتفقت رقيبنا فيه » .

— ما أشد رغبتني في ذلك . فهل أنت راغبة أيضا في أن
تلتقي ؟

أجل . أما الآن فيجب الانسحاب إلى العرف السائد ، وعليه
أن نسرع بالعودة إلى حيث يجلس الباقون .

— اعتقد هذا ، وإن لم يكن فيه هوى !

وغادرا الشرفة عائدين إلى الدار . وفي هذه المرة صمنا كلاهما شبيبا واحدا على غير اتفاق سابق : فحبينا كانا يهرول في الحجرات بفراش ، كان كل منهما يغض بصره ويسرع الحلو متباعدة عن الآخر بعض الشيء ، وإن كان إحساس كل منهما بصاحبه قد ازداد شدة وعمقا !

— ٢ —

وموق قبة جبل التجرية ، وبين أزاهير (الأذريون) البرية الصمراء العفنة ، سسفى وليد حسين على بطنه وراح يتحدث حديثا خويلا بين ، بنو اذى حسن مسند ظهره إلى سحره ، ومرسلا طرفه عن لؤادى سريش اذى ربيع في حوض سحر التحيل الباسقة ، وأشجار الزيتون العريقة ، وتمترس اذنه — لاصقة بالأرض — بيوت اريحا البيضاء .

— لقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرتنا ، ولكن الوضع في حوهره ام سحر . ذلك بعد الله من هنا يعلم . و... ذلك دلال برل عن العرش وولاه لميت اشش عت حسين . وس... مسسطين لخدمة لم برل . و... بها مسسونة مجده . و... عام يملو انتسبه فلسطينية من السسطة في تحول عامه سال عنه لاهم المتحدة بحمصها العامه . ونسبى الامر دامت مسسند حق اللاجئين في الوطن . ثم يلف الامر عند هذا الحد . فلا اللاجئين يستردون وطنهم ، ولا يندو أن هناك أهلا في ان برد إليهم هذه السسطة ونسبهم . وس... يحدث شيء حاسم في مسسنة فلسطين إلا إذا صنع الفلسطينيون أنفسهم هذا الشيء . هذه مسسنة سمرها حبيب . وس... أششكته كلها . مسسند في دلال . وسسلة المؤدبه إلى د... . وس... أكبر ما يقوله من مسسوس انفسهم مالعلاء من ان سعودة إلى الوطن حل غير عملى . واننا يحب أن تكون « واقعيين » عمليين » فمقبل الوضع الراهن . أى مقل تحول ثلثي فلسطين العربية إلى دولة لسيطة اسمها

إسرائيل ! .. فنوامق بذلك على ضياع شخصيتنا القومية ،
ونتحول من أمّة متفيرة مستقلة ، إلى حشود من الأفراد متشتتين
في بلدان تستضيفنا . فالتنازل عن الوطن معناه ضياع أمّية ،
ولا مرء . فهل في وسعنا أن ننسى إلى الأبد أننا فلسطينيون ،
وبعضى في الحياة المشرده مطلوب دبلوماسيته ، حتى يسي الناس
تضيقنا الوطنية بعد أن نسيناها نحن ، ونتحول من شعب
مظلوم إلى شعب منسى ؟

وكان صوته وهو يكلم يقتر مرارة .. ثم اعتدل في حسيته
واكلمه وجهه من فرط الغضب وهو يستطرد ، قائلا :

وهناك آخرون مادون من دولة إسرائيل إنما هم من جهة
مارة من مراحل التاريخ ، وأن هذا الاحتلال الغاصب سيجنب
عن مبادئ بصورة فلسفية ، كما انجاب عنها سلطان
الإمبراطورية البريطانية ، وأصحاب هذا الرأي من المؤمنين
بأنه لا يمكن العودة إلى الأمور . ويطلب لهم أن يقولوا لك ،
كيف انتهت إمبراطورية الفرس بعد ازدهار ، وكيف انتهت
إمبراطورية الرومان بعد ريسوخ وانتشار ، وكيف انتهت
وتمت الإمبراطورية البريطانية وكانت الشمس لا تغرب عن
أرجائها في ليل أو نهار ، وكيف قام الرايخ الثالث وأوشاك
أن يسيطر هتار على العالم أجمع ثم لم يلبث أن انهيار ..
ما علينا للتحلص من إسرائيل سوى طول الاعتلال ! وهو كلام
لا يفرح إلا من يمكن كل شيء ، مهم في أوطانهم مستغفرون .
وفي ديارهم آمنون موقفون ، وما عساه بعد ذلك أن يطأوا
المشردين المحرومين المفضولين بالدمع والذلة إلى أن تنقضي



استلقى « وليد حسين » على بطنه وراح يتحدث حديثا
طويلا إلى « ابطون » الذي جلس مستندا ظهره الى صخرة ..

الحياة ، ولا خسارة على الفاضحين ، ولا كسب للمتصوحين وإيها الكسب في الحقيقة لأولئك الذين من مصطلتهم استقرار الأمور وعدم شوب القتل ، ولو دسعا عن حق ، أو دفعنا بعدوا على الحدة . واحسب أنك القيت بالكثير من طرار أولئك الناس أثناء إقامتك الطويلة في إنجلترا .

— نعم . وكثيرا ما ضلقت أنفاسي بهم !

— هذا حالك وانت مقيم في النعمة والعافية ، بين أهل أمك في ملك البلاد السعيدة ، عما نالك الذين معشورين في الخيام الدائمة ولا مورد لحماهم إلا ما يورد من عليهم أخص المتصدقين تحت اسم « هيئة إعانة اللاجئين » ، وإيها لفتسات لا يسمون ولا يغنى من جوع !

وسكنت ولدت قليلا ، ثم أردف :

— إن لي صديقا يعمل في معهد المكفوفين الذي سمعته أنت ، واسمه « طالب حمادي » ، تعلم أنه مريض . وكان يؤمذ يعيش في معسكر اللاجئين . سمعته بالمرحمة من بيت لحم) ، وكنت قد ذهبت أرى ذلك المعسكر في صحبة عمي مدير البنك . وطفان بجانهم وبما اشرف ويعسوب بحبة الإغثة . وكان طالب حمادي أحد الذين تحدثنا إليهم لاستطلاع الاحوال . فنعاد عمي شحشا دنيا مودع اندهر . ثابت الجنان ، طلق اللسان ، ما عجب به ، وسأله . قل لي أن يتحقق بعمل جارج نطق المعسكر متعسبي له أن يعيش بعيدا عنه في ظروف أفضل من هذه الظروف ؟ وكانت من طالب وتشد ثمان عشرة سنة ، فأحاه لأول وهلة بالعرض ،

لأن قبوله سيترتب عليه إقصاء مخصصات المعونة لأسرته ، بيد أن أمه انهزمت وقال إن من الغباء إيلات مثل هذه أفرصه . وهكذا حصل عمي لطالب على ذلك العمل في معهد مسير ثمانلى . وفي لعام الماضي سرح من بجدي مسير المعسكر . وهي لم ترل مقيمة به ، مع أنه يقيم مثل سائر مدرسي المعهد في المستعمرة الملحقة بالمعهد نفسه ، لأنها فضلت البقاء مع أسرته .

— وكيف يستقيم هذا الزواج ؟

— إنه يسهر أن يمره مراعى مذهبه بساعة و ساعتي ليدلاني إلى المعسكر على من درأحه على يري روحه وحاشاها . وقد سارحني من معشته في المعهد بمويز بها وبسبل أرحه إلى أقصى حد . وان الغذاء في نظره على الأقل ممتاز . وان الجبيع هناك ياملونه أكرم معاملة . ومع هذا فهو لم يرل يشعر باستمرار أن بيته الحقيقي في ذلك المعسكر بين النساء عشيته . وهذا هو ما يسمى الآن بعقدة الالتقاء . أو العقدة الخاصة باللاجئين . وزوجته تفتى إلى هذه العقدة .

ولذا تعرض أن تستقل بمعيشتها مع زوجها في معسكر خاص بيت لحم . وكلنا هنا تقريبا ننتهى إلى هذه العقلة . حتى من لا يعيشون منا في المعسكرات ، مثلى أنا الذى أعيش في بيت عمي مدير البنك — حين أكون هنا — أو في مساكن الجامعة بمرور أثناء السنة الدراسية وحتى أنا — وقد شـ . عيشة مجلعة حد عن معشته .

والدتك وجديك - إلا أنك كنت تواقفا طوال الوقت للعودة إلى هذا اسد ..

- إن هذه الفكرة لم تفارق ذهني لحظة واحدة !

- وكذلك الحال بالنسبة لي وأنا في بيروت ، مع أنني سعيد جدا بالفرصة التي سبحت لي كي ألقى لعلم هناك . ولكن بيروت ليست وادني - ولا أشعر بموسمى كما أشعر هنا ، في الأرض التي كانت تسمى فلسطين ، ويجب أن تسمى بهذا الاسم على الدوام .

- ولكن ماذا عن صاحبك « طالب حيازي » ؟

- إنه يتمتع بميزة بارزة بالنسبة لمشروعنا ، فهو من بئر سبع ، وهو متأثر بشدة بالهنة على العودة إلى ، لأن ذلك لم يزل وفيها هناك ، وقد استطعت إقناعه بوجوب توسيع دائرة مقاييسه المعالاة السرية هناك ، داخل الأرض المحتلة نفسها ، وإلى أخيه هذا مستنجد عند تسليتنا ، وسيكون « طالب » معنا .

وتسارعت دقات قلب انداوي ، عطرين بئر سبع أم ... قبل ذلك سوى حلم من الأحلام ، أقرب إلى الرمز منسوبا إلى الواقع ، ولكن ها هو الحلم يتحقق في صورة مادية ، على حين عرة !

وعطر أنطون من موقفه حصل التجربة ، لكنه يريد أن يرى تلك الطريق الملبوية التي تبدأ من الحاييل وتعبر في

مسيرها عبر حدود التقسيم ، وإن هي إلا بصعته أمبال حتى تكون قد أمضت إلى بئر سبع . انهما على هذه الدرب يسير سدرحان معا . هذا هو الواقع الذي بات مموسا لأنطون ، كواقع وجوده لا على قمة جبل التجربة مع وائد ، وكواقع هبوطهما عنه بعد قليل ليسردا دراحبيهما من الخير في منتصف المسح .

وسال أنطون وائد وهو يصيحيد أن يبدو غير مصطرب ، لمفسس بها حاش في مدرسه من امعالات غنية : « وهل يعرف طالب أرض تلك المنطقة جيدا ؟ » .

- خير معرفة . فقد كانت لأبيه أرض راعية في اوداي من وراء الطهيرة ، وله في اقربته أبناء عمويين ، ما سيساعده على الوصول إلى تلك المنطقة .

- وهل لم يزل الوصول إلى هناك محفوظا بالصعاب ؟

- الغريب عن المنطقة لابد لهم من ترخيص بالمرور ، وسيكون في وسعنا أن نحصل على الترخيص بسهولة من طريق عمي . أما طالب فتن يحازم مركوب الدائرة اعداءه ، إن حضر أحد أبناء عمومته يتسنى له إثبات شخصيته عند اللزوم لدى الشرطة ، ذلك أن رجال الشرطة يقومون أحيانا بالتفتيش على الركاب ومراجعة هوياتهم - انصافاتهم الشخصية - لتأكدوا من عدم وجود غريباء بينهم ، فإن وجدوا منهم غريبا كان عليه أن يثبت قرابته لأحد من سكان المنطقة . ولذا يستحسن أن يكون معه أحد أقاربه المفضل . وأما صاحب

أقوم بالمهمة ، مقد قصيت السنوات الأربع في إنجلترا وهي شغلى الشاغل !

— إن وصولنا إلى بئر سبع سيكون له أكبر الأثر في الفلسطينيين هناك ، ولا سيما حين يرون شيئا مثلك جاء إليهم مسرعا من وراء البحر ، ويقرون من من ليس هناك من يدركون أباه ومواقفه الوطنية .

— هل من المعروف عدد الفلسطينيين في الأرض المحتلة ؟
— نحو خمسة وسبعين ألف فلسطيني يعيشون تحت مر إمه أثيل ، ويعاملونهم على أساس أنهم « مواطنون من الدرجة الثانية » . ولديهم بئر سبع كلها معلم سوي البداية . مجرد مياه لبقاوية لخدمة أمي ، تحت ن بيت ، في كل قرية وبديته في الأراضي المحتلة لم يرون فيها حرب . وقد انزما الإنداء عدد سبع لآلها ، ووفقي لأعلى وموطن طاب . ولابد لنا مستقبلا من يحدث من المد من مدرسين أحسن تدريب . على السؤل الحدود . .

— الحكومات وحدها هي التي تستطيع هذا !

— وأي حكومة هي التي أعدت جيش أيرلندا الوعنى السرى الذي سمح لإجبار بعد تقسيم أيرلندا ، ومن الذي أعد جيش المقاومة الفرنسي عند تقسيم فرنسا إلى محتل وغير محتل بعد الغزو النازي ؟

ثم بطر وليد في سعه ومال : بحسن أن يعود الآن . نقد وعندها في الدبر أن تعود في الساعة الرابعة » .

كثيرا ما ذهبت مع عمى كلب حضر إلى حليل . وعلى كل حال لم يعد الأمر عسيرا كما كان في سنة ١٩٤٩ ، ومع هذا سيكون أنت بحاجة إلى ترخيص .

— وما هي خطتك ؟

— خطتي أن ألقى العطلة كلها هناك في فصل الصيف القادم ، كي أعرف على أرض المنطقة تعرفنا تالها . سأقضي النهار بدها في الحفول مع عمى ومع سعيد ومع الحد . في ن يوم س وعمل إلى مساهمة بعد ، ونا عمل في الزراعة ، من مر أن أتحاور خط الهدية . وسأقوم طاب رسم حردله بعددته للمنطقة .

— وكمن من الوقت سنتضيه في بئر سبع ؟

— ربما قصدت هناك شفعة أسابيع ، أما أنت ولطاب على عددا ههناك . وى بسعة ، سام . لأن العطلة الحسنة في معيذكم شنه معذومة .

— سيكون عليك إذن أن تعود وحدك !

— لن يكون هذا عسيرا ، لأنى في هذه الحالة لن يكون مشغول . دهر بصير من عمى . هل تشعر أنت بتوتر أعصابك في مثل هذا الموقف يا أتلون ؟

— أجل . إن المسألة برمتها تبدو لى الآن هائلة ، وقد أوشكا على تنفيذها . وليس معنى هذا طعا أنى لا أريد أن

- ٣ -

كتب أنطون عددا من الرسائل إلى أهله في إنجلترا . و د
صديقه مستر جومز ، وأرسل بطاقات ملونه إلى لدلى . وكان
معظم حديثه إلى والدته عن ثريا : « لقد أعجبت ثريا كثيرا
بدار أسلام ، وقد ظففت بها أرجاءها وشرمائها . ووقفنا وقفة
ديولة في الشرفة العلوية التي تطل عبر السنتال على حقل
التخربة . وأحسست وهى وافئة هناك معنى أن التاريخ مع
نفسه ، كما حدث في أول مرة وقف أنت معها هناك مع أبى . .
ولم تسمح لي انفوسه بكى أراها هذ ذلك لأنها عادت إل حياقي
السبح إلى (رأم الله) معصاء عدد الميلاد مع دى بها « لك »
وفي نهاية الشهر ستكون قد عادت رأم الله عائده إلى بئروب
لاستئناف دراستها . كم وددت لو أنها لم ترحل !

« . . وقد ذهبت لزيارة مستر شابل في يوم وصولي بعد
الظهر ، في صحبة زوج عهتي حليل الذي كان يتودد لبارده .
ودعنا مساء وريد ، وبذلك سمحت لى الدرسه كى استمه إلى
أمين الذي يحتفظ الآن بشارب أسود كك ثل ولسد « . .
الأشغال اليدوية للكثير من في المعهد . وقد طاف بى « أمى »
أرجاء المعهد وملحقاته ، ومستعمرة المساكن التي يتيم بها
المعلمون ، وأرائى الكوخ الذي ساشاركة فيه عقمها
أنسلم العمل . وكل شىء في داخل هذا الكوخ الصغير الضيق ،
أجرد ، والأرض الحجرية عارية والأثاث بسيط جدا وفي
اصيق الحدود الممكنة . فكل شىء هنا هو الحد الأدنى للوازم

الحديثة لحرويه ، من غير نظر إلى وسائل الراحة أو البرم
بليمة الحال !

« وليس بيت مستر شابلي أحسن حالا من بيوت المعلمين .
و . . بهير به هو لك تكبته الضحكة من الكتب التي
يملكها ، وهو رجل طويل القامة ، نحيلها ، أشيب الشعر ،
رفيق الحبيب عاية الرمة ، يبيض دباهه وعلمها وحسنا على
ملابده وبروسيه . ومن يقول إن الجميع هنا يحبونه لأنه
في الواقع إنسان منكر لذاته كل الإنكار . وهو شديد الاعتاب
الميلاد . عدى . حال بى من ذاب به إلى هذا الهدوى أشد
مستحبه من الكثرة إشالة من ينسبون إلى المسيح بالاسم
والعنوان . بل إنه يعتبر المهابة عبادى أعظم مدخل لمستحبه
في العصور الحديثة .

« والمعهد في الحقيقة أقرب إلى العالبيه التي تعيش على
أسلوب ملوى مشرك مذه إلى المدرسه . بل ما أشبهه
بمستعمرة من حيث أنه يتألف من مجموعة من الأكواخ للإمامة ،
ومزرعة صغيرة ، وحديقه لإنتاج الخضر التي تصاع في سوق
البلدة ، وعدد من الورش ، ومصنع صغير للنسيج .

« ومستر شسابل لم يتزوج . ويزعم أمين أن ذلك اثر من
آثار إعجابه بفلسفة غاندى . وفي المستعمرة أيضا سيدة
إنجليزية هى الآنسة « ريس » ، ونظوم بمهنة مدرسة البيت
والأم لجميع من في المستعمرة ، وهى التي تعنى بفيات التلاميذ
المكتوفين ، وتشرف على أعمال البصيل التي تقوم بها
من اللاجنات القليات في المعسكر

والآنسة ريس في نحو الستين من عمرها فيها اعتقد ، وقد حسبته لأول وهله حادة الطبع ، ولكن امينا قال لى لها طيبه القلب ، وان ما حسبه حده طبع لها هو انواع صراحه واستقامة في التعبير ، وإنها ذات عقل على ، وهذا الجانب من الخير ان يوضح معنا ، لان مسير شاملى رجل ، لم ولا يصلح لمعالجه المسائل العمليه . وقد احببنى الانسة ريس لأنها كانت تعمل تحت إمرة جدى في يافا ، وانها ترسل إليه بتحياتها .

« والتلاميذ المكونون منهم من يقيمون في المعهد بالتقسيم الداخلى ، ومنهم تلاميذ بالخارجى يحضرون يوميا منها عدا يوم الأحد ، وتقولى الآنسة ريس إحصاءهم في عربة المدرسة . ومستر شاملى هو الذى يلقى دروس اللغة الإنجليزية عليهم ، وساتولى مساعدته في هذه الدروس على أمل ان اتولاهما نهاية عنه بصفة شاملة فيما بعد . »

والحقيقة ان ماريان لم تخرج لم ، ورد في المحطات بسى النساء ، وان كانت تعرف عائله بسبب صهره بسبب . وهي غير بسى من ان ربما هناك قدوة حسنة بربيه ، يمكن ان تنجح في « كشف الهيئة » أمام تلاميذ « اربيت » الفاحصة ، وبمقابليتها الاجتماعية الصارمة . ولكنها كانت تريد لأنظرون الا ينشئ علاقة تربطه بملاده العربية ، ويجعل إقامته هناك منذ مستقبلا إلى أكثر من هذه السنة القادمة . ثم ماذا يكون الحال ومن المفروض في ختام هذه السيرة ان

يعود أطول إلى لندن لندرس في مدرسة العلوم الاجتماعية والاقتصاديه بدى سنتين على الأقل ، في الوقت الذى لابد منه لغتاة نفسها من قضاء مدة أطول من هذه في اتمام دراساتها الطبية بجامعة بيروت الأمريكية . مالمصورة العسايه لأطراف هذه العلاقة ، لا تبشر إلا بأنواع من الفرقة والافاق والحرمات . .

وناقشت ماريان الأمر مع أسبها ، ولكن الرجل بعد ور الحرب رفض ان يحاربا في هذا الفلق ، وقال اسب : « رجع بعسها نامور لم تزل في طى الغيب : » « دعى العشى يستمتع بهذه العلاقة الحائلة خلال السنة التى يقضها هناك ، ولا معنى ان مثل هذه العلاقة تستشعل ذهنه عن كل هرا مرته على لتسلل وراء ، خطوط اليدنه مع صاحبه وللد . حتى إذا عاد إلى لندن ، استغرقته حدة جديدة في الجامعة ، وسببى هذه العلامة ممانيا الطليعه . عن طريق الدبول والتلاشي ، بانكر الامر ، عودته إلى انجلترا ستصل أسبها بسبب امها ، الإحباطية ، متروك في النهاية فتاة إنجليزية . ومضى تم هذا مهول لن يفكر في العودة إلى فلسطين . »

أحشى يا أبى ان تكون مثالا أكثر مما تسعى . مانطوبون من أبيه أكثر مما تنصور . وقد طلب إنجلتسرا بالسيرة له « أرض المضى » ، كما كانت حربه ان يكون بالسيرة له ليعلم من يؤمنه كان هنا معنا تلك السنوات . مالمعودة إلى فلسطين في إحساس أطون هي العودة إلى الوطن . ومنه أم هذه السيرة شرا . ارجع إلى حد كبير إلى أنها تمثل بقدرتها حيلولة حيله

بلاده وشمسها . عارضاها بها هو ارتباط الحذر بالبرية التي يتم فيها ويتأصل . ولذا أعتقد أنها ستجذبني إلى الشرق بحيث يعسر جدا انقزاعه من هناك ليعود إلى أحضاننا .

وهز روبرت ملبي كفتييه وقال بهدوء : « ليكن ما دكرن . مائتني يمشي أن يحرق دانه على الطريقته التي يستقر بها نفسه ويرتاح إليها تفكيره » .

— هذا شيء لا أمارى فيه . وإن كان يسبب لي الما شديدا . واكتبا لا تصوغ اولادنا على ما نؤوى . وساكتب إليه اليوم وأبعث إليه ببركتي .

ولا تنسى بركتي أنا أيضا . « اعطنا اليوم . خزننا كفائنا » . « يوما بيوم . وغدا يوم جديد يفرض نفسه » . ولا حيلة لنا في تحويله أو التنبؤ به . هذه الفلسفة أم . بل مسالحة لتسيير أمور البشر في كل حين .

وام يكتب انطون إلى والدته شيئا عن تفاصيل حياته بعد ذلك ، وإن كان قد وصف لها احتفالات عيد الميلاد في دار الأسماء ، وفي رام الله . ولم يذكر لها كيف حرص على قضاء ثوبا قبل عودتها إلى بيروت . وكيف كانت بداهما تشاكسا خلسة في الحين بعد الحين ، كلما امتنا أعين الرقماء . أم على الأصح الرقيبيل من بنات عمته . وإن ثريا لم تكن تجذب يدها إلا بعد برهة طويلة وهي ترمقه بابتسامة وضئنة .

والحقيقة أن بزور القلق العاطفي أخذت تنمو في نفسه بسرعة بعد أعياد الميلاد ورحيل ثريا . وكثيرا ما كان يخلط عليه الأمر وهو يحلم ، يرى رورا بين ذراعيه في قاعة السهم المظلمة . وقد التفتت شمته في شمسها كما كانت تفعل . فيستيقظ من نومه مرتجفا وتفيض نفسه بالأسى والشجن . ثم يصيح له بعد قليل أن ذلك لآسى ليس حبيبا إلى رورا بالذات . وأن صورتها في الحلم لم تحدث به إلا اضطرابا حسنا عضويا . أما حنسه العاطفي على العنفة المقهمة في بيروت !

وكان يؤلمه أن عطلة عيد المصح لن نحل إلا بعد وقت طويل . ولا بد له من الصبر . ولكنه صبر يزيد عاطفته الوليدة اشتعالا .

- ٤ -

شعر انطون لأول وهلة أن « طالب حمادي » لا متحبه ثقته ، يرسم البركة الحارة التي اسمها عليه صديقه وليد ، فهو يحضر بعارفة تشبكت إلى الدماء السكبوسية التي مسرى في عرومه محتلطة بالدماء العربية . ولذا لم يكن راعيا في اشراكه معهم في عمله نثر سبع . . . صاف إلى هذا أن طالب من أسرة عمه أشد المقر ، وكاهله بمثل أشد الانتقال بمسئوليته المسئولة . وقد علمته مرارة التجربة في معسكر اللاجئين الإنش ما يطمع له من الفلسفليس ، لأن لطرويف لم تدس عليهم إلى الحد أبدى بصورون منه جوعا أو يعيشون على صفات لصيقة بما يمشي دونه مع الوف من مطراهم في تلك الأيام . وقد زادت هذه المرارة رسوبا في نفسه بعد أن أودى سوء التغذية وبرد الشتاء وسالة الكساء بحسبه أبيه - على أثر التهاب رئوي في شتاء قضته الأسرة في ذلك المعسكر الرهيب - وهذه النار المتاجرة في نفسه هي التي جعلته شديد النهم لمكرة التسلل إلى (نثر سبع) عندما أتت فيه وليد . فهذه الفكرة هي المنتسب الطبيعي الذي كانت تحتاج إليه نفسه الساخطة !

و « طالب حمادي » شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، وسيم الحيا ، لولا أنه دائم العبوس ، ضيق الصدر ، لا يميل للمجاملة . وقتلها رآه أحد ماسم الفجر منبسط النفس كسائر الناس . ولست محصيا حدا في علاقته برميله الحبيب انطون .

وكان أول ما حطر لأنطون في تحليل ذلك ، أنه يشعر بالسره منه لأنه اقتحم عليه استنثاره بصديقه وليد . ثم بدأت الحفنة تتكشف له رويدا رويدا . فلم يحاول بعدها أن يكتسب صداقته ، واكتفى بصداقة صاحبه القديم أمين .

و (أمين) - على عكس « طالب » - دبت متواضع سهل الفياض ، راض نفسه بمد رمس طويل على ثقل عاهيه غير يدر ، وهو مبص النفس بالشكر والموده على لمعونه التي أسعها عليه مفذ صباه الباكر والد انطون . أما انطون نفسه فهو أحب إنسان في الدنيا إليه ، وقد طلت راسحه في ذاكرته لمسه يد انطون وهو خاضع على يده طوال تلك المسيرة المشؤمة من (اللد) إلى (رام الله) تحت شمس الصيف المحرقة في البريه .

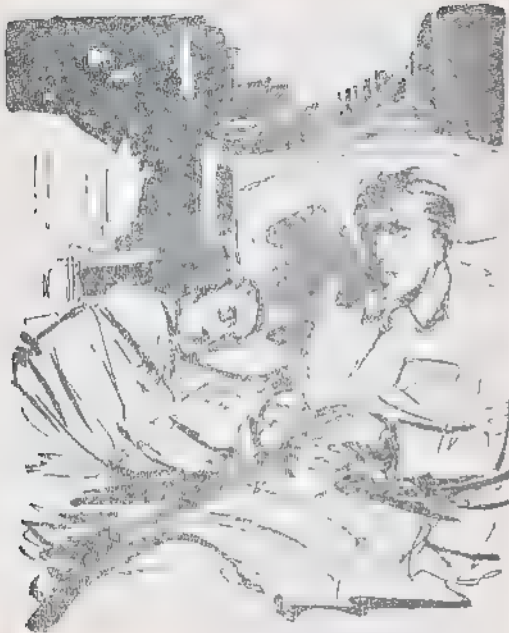
ولن نسي (أمين) - ما عايش - اصرار انطون على الاحتفاظ به إلى حواره في سيارة الأسرة عندما أقبل عمه فريد لاصطحابه . ثم اصراره بعد ذلك على استبقائه معه في بيت آل داود ، وقد جدد هذا الاحساس لديه أن انطونا أصر عندما شاركه كوحه أن ينقل سريريه إلى حجرة نوم أمين مسها لنفسه إهما السمر الطويل بعد ذلك الانقطاع !

ولكن انطونا لم يختبر أميناً بها دبره مع وليد وطالب ، وإن كان قد سألته عرضا عن رأيه في إنشاء طابور حامس داخل الأرض المحتلة ، مهذا لقيام حركة مقاومة مسلحة من نحو ما صنعه الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الثانية بعد الغزو النازي . فإذا أمين لا يدري شيئا عن الطابور الخامس أو حركة المقاومة الفرنسية . وكلى انطون قد عرفنا ذلك كله

من مدرسه السباق مستر جوير ، مشرحة لأمين بحماسة أثارت اهتمام الشاب الأعشى ، بعد أنه لم يستطع أن يتصور نجاح المقاومة الفلسطينية إلا على أساس أن الفلسطينيين كانوا مدعويهم بالسبعدات والسلاح بطريقه أو بأخرى . ولكن هل هذه هي الحال بالنسبة لحركة المقاومة العربية داخل إسرائيل ؟ .. أنه يفهم بسهولة أن يتمثل العرب الفلسطينيون وراء خطوط الهدنة لزيارة ذويهم وديارهم حاسبه ثم يعودون بعد إطفاء علة اشتياقهم إلى مراع طموحهم ومراع مصالحهم . فهذه في تصورهم عملية عاطفية عائلية ولا يمكن أن تكون حركة سياسية عسكرية .. وقد قال أمين رايه هذا بصراحة . وهو رأى أمله عليه ظروف نشأته وعاشه التي جعلته « مستغلبا بعمره » . ولا يحسب قيام الإنسان بأعمال خطرة مستغلا بنفسه ، غير مستفيد العون من أحد .

ومهما يكن من شيء فقد ظل انطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس . وراح يقلت الفكرة كلها في ذهنه . وحذر له أن ولدا وطالبا ربما كانا مدفعه عن إس هذه العملية بحامر انفعالي يريد أن يحدد متفلسا عمليا للسلح والرجفة في المقاومة ، من غير نظر إلى حدود تلك المقاومة . فهي أشبه بالصرخة التي يطلقها المكروب ولو كان يعلم أنه ما من سميع ولا مجيب !

وفكر في امر بعينه شخصا ، وفي الدافع الذي يحفز على المضي في إنفاذ تلك الخطه ، وتراءى له بعد أعمال التفكير أنه إنما يستحسب في ذلك لصداقته القديمة بوليد ، ورجفة مقله



ومهما يكن من شيء فقد ظل انطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس ..

في اثبات حذاره بتلك الصداقة . ولمرط ما « عايش » تلك
المكرة ، استولت عليه بحكم الآلة ، بصرف النظر عن ممراتها
الذهبية . . . ولكن حاله اليوم غير حاله بالأمس . ولئن كان
مكره السبل هي مزعه العاطفي الأوحى يوما ما ، فثدي اليوم
منزع عاطفي آخر يرداد يوما بعد يوم يهينه عليه ، وهذا
المرح العاطفي يهمل في « ثري سانا » . . . وما أشد المارقة
بين ذلك الحب الذي يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به سابقا
من الشوق إلى رورا ، مشوقه إلى رورا هو الشوق إلى المص
لحار والمذايعات المثيرة ودفء الانوثة الدافئة ، أما شوقه إلى
ثريا فلا يمثل له إلا في الخلوس إليها ، والبطر إلى عبيد . .
والحدث معها . ولكن هذا الشوق على حلوه من سفير الشهوة
ليس أقل سيطرة عليه من شوقه إلى رورا يوم كانت علاقتها
في أمانها ، إن لم يكن أشد ، لأن هذا الشوق نابع من وجدانه
لا من مرده الجسم ، ومن عقله وشخصيته كلها لا من
أحاسيس المراهقة الزهراء .

ولكن كان محلم أحلام النقلة فراها وقد طارت من نروب
إلى بيت لحم لتتقضى معه يوما في النزهة ، حيث يجلسان في
ظل شجرة تين عحوز وبرزلار الطرب معا عبر المروج
المحبب ، حيث برعى الحملان البيضاء اعتساما برداة
بالسوسن !

وسأله مستر شابل في ذات يوم عن حاله ، وهل يشعر في
المعهد بالأساس والاستقرار النفسي ، وألقى بظن نفسه

ببسم ويقول إنه على حير ما يرام هنا ، مثلما كان يتشم وهو
في المدرسة فليس مطاهرا بلناظم والسعادة ، وتقليه في واد
آخر . . . إن العبد على رفته البالغة لم يشعره بالآفة
العطية . ولكنه وجد تلك الآفة الحريجة مع الآتية « ريس »
التي شعر بعد انقضاء أسوعين على الأكثر أنها تزيل إليه
وبالنه ، وكثيرا ما كانت يرى عنه بعض وحشقة بدعوته
للركوب معها إلى القدس ، كلها ذهب إلى هناك لشراء
مستلزمات المستعمرة من لأطعمه وما إليها ، وكان هو حالي
استرايح من الدروس إلى بعض في البسة الإنجليز وافتاءه
بخرطه « برادل » . . . فكان يمشي بريح دائما بتلك الرحلات
التي تدخل النعيم على مبدئ حيلته الرتيب في ذلك المكان .
ويحد منها مرصدا دليلا بالاستمرام عن مفكره المدس في نرد
سنا .

وكثيرا ما سارعه بمفكره أن يكتب إلى ثريا حائسا من الحواطر
التي تدور بذهنه في شأنها ، ويشأ ، بعض أحلامه وأمانه
واشواقه . ولكنه كان دائما يهرق ما يكنه إليها ولا يحمر
على إيداعه صندوق البريد الجوي !

واخذ موعد عطلة عيد الفصح يقترب رويدا رويدا ، ومعنى
ذلك عودة ثريا إلى رام الله . ومعناه في الوقت نفسه عودة
وليد أيضا ! ووليد مصر على أن الوقت غير مناسب على
الاطلاق لإنشاء علاقه حب ، ووجود ثريا في حد ذاته أمام
ناظري أنطون برهان من أقوى ما يمكن على لروم تلك العلاقة !

وشعر أبطال حاجته المصوى للاعضاء بحرية إلى إيسن
ما ، بيد أنه ألقي من المستحيل عليه أن يناقش عاطفته نحو
تريه مع دغدغته المخوف أمين ، وليس له صديق سواه للأسف
يسمعه أن يفتح له قلبه في هذه الفترة . . وعجبه ، ذات صباح
مشرق من شهر أبريل ، رأى ترياً في مدسه أعمس ، يدهس
رأسها داخل قاعدة السيارة التي جلس هو فيها ، في انفسد
امحور لأسائن . يبتلع أوجه الأنسة رئيس من مكتب البريد ،
وعلى محياها ابتسامتها المشرقة .

ووثب أبطال من السيارة وراح يسألها بعد عبارات
الترحيب الأولى عما أرى بها إلى القدس ، أن يذاهه معه
المصحح . ومضى كان وصولها من بيروت . صاحبها أن يذاهه
كلية الطب تحتفل من سنة إلى أخرى ، وأنها حضرت من بيروت
منذ ثلاثة أيام . فقال لها في شيء من الاستياء :

— لك هنا ثلاثة أيام ولم تقابل أولا هذه المدبة ادمية التي
جاءت على غير انتظار ؟

وكم كانت دهشة حس قالت له انها فكرت كثيرا في
الذهاب إلى بيت لحم لزيارته ، ولكنها لم تستطع تدبير ذلك
بسهولة ، وانتهت ذهبت مرتين إلى بيت آل داود على أمل أن
تراه هناك ، ولكنهم قالوا لها انه لم يعد يزورهم منذ التحق
بالعمل . فقال امعلون : « إن وقت فراغى قليل . وليس
هناك ما يدعو للتوجه إلى بيت فنه بدأت عمى الحمقانات .
ولكن ماذا من صنع الآن وقد أوشكت عطفك على الانتباه ؟ » .

— أمانا في الصيف عطلة تمتد ثلاثة أشهر ، وسيكون من
السهل علينا في تلك الفترة أن نلتقى .

— لم ترل بيننا وبين الصيف فترة طويلة جدا .

— ليست طويلة إلى هذا الحد .

— في نظري أنا على الأقل !

— في وسعنا أن نقصرها بتبادل الرسائل !

وعندئذ أقبلت الأنسة رئيس من مكتب البريد ، فمهم بمقدم
ترياً إليها . وكانت الأنسة رئيس تعرف والدها الدكتور ساب .
وم تلتح ربنا أن اسدد في الانصراف ، ثم حرصت على
استقاء يد أبطال في يدها وهي بودعه ، وقالت له بأسية :

— هذا وعد إذن ؟ ستكتب إلى واكتب اليك !

— كم كنت متلهفا على هذا الوعد .

وبلاقب عناهما في مطره طويله ، ثم انصرفت . وفي الطريق
إلى بيت لحم سألته الأنسة رئيس : « أهى هناك ؟ » .

— أظن هذا . ولكن الفرصة لم تسنح لنا قط للالتقاء على
امرأاد . ولم أقابلها من قبل إلا في حملات عيد الميلاد بأريحا ،
وكانت شرفة كبيرة من أعضاء الأسره تحيط بنا على الدوام !
ولست أدري كيف يقضى للشباب هنا أن يتعارفوا معرفة
كافية لعقد الخطبة ، ودعى منك عقد الزواج !

— في مثل هذه الظروف التقى ابواك ، وتبنى لهما أن
يتدبرا أمرهما جيدا !

— لا وجه للمقارنة ، فقد كان أبى صديقاً لوالد أمى .

— وهل فى نيتك أن تتزوج هذه الفتاة ؟

— إن تفكرى ام يصل إلى هذا المدى بعد . وكل مرادى أن أجد فرصة للانفراد بها أحياناً كى يعرف كل مننا صاحبه ! وروكا فى إبطها لوسعى أن أخرج معها للبرهه علانته وإن اصحبنا إلى السبىما وأروها فى بيتنا وأدعوها أن يبارس فى بيتى . .

— وشىء من هذا يحدث الآن هما بالفعل من الشباب المنهزم على الطريقه الأورسه . ولكنك عحول أنها الشاب ! ثم أنت كسول أصلاً ولا تبدل جهداً كعباً ، داسع أدك كادناى لا بد أن يسندرجه إلى شبتك وإلا فلا حسد ! وأعبات فى هذا البلد لا مسقط من السباء على الرجال كما مسقط الفتره بعد مهام يصحبها على الحاسى فى ذلال الأشجار . بل لا بد من حتى تلك الثمار بعناية وحذر فى أوانها المناسب . فبى سم حديق ، فر فرارهم فى السلال . وهى مربيه لا يمكن أن تقال بصدق من كثيرات من فتيات الإنجليزيات !

واستسلم انطون للصحت والتفكير ، ثم سألها نجاة : « خرينى يا آنسة ريس : ماذا تفعلين لو أن لديك رعتين متعارضتين تماماً ، وكل منهما عزيز عليك ؟ إلى أيهما تسعين ؟ » .

— أهذه هى مشكلتك ؟ أهذا التعارض هو الذى يقعدك عن السعى للحصول على فتاتك ؟ هل هناك عاطفة أخرى تتنازعك ؟

— مرقسا .

— فى هذه الحالة إما أن تتعد مكتوف اليدين هكذا ، سمعد الاثنين معاً ، أو تلتزم الحرم مع نفمك وتقرر بصفة قاطعه أيهما ألزم لك ، ثم تجمع همك للفوز بها !

* * *

إما وليد لم يقابل انطون فى عصبه عند الفصح إلا مرة واحدة . وسباق سابق على اللقاء فى رام الله . بد محسب انطون بسونييا فى المعهد يوم وصوله ، والنتي فى اليوم التالى . وبعد وصول انطون إلى رام الله معولاً على قضاء نصف العام فى صحبه ولدت . سمح له أن ولدا لا يسلمع من سمحه من وقته سوى ساعة واحدة ! فقد اتفق مع شخص ما على أن يقه فى سيارته بعد مداعه إلى الليل ، حيث بدت ليلته ، ويرحل فى الفداة بالسيارة العامة لزيارة عمه سم فى (الظهيرية) التى سقضى بها بقية الأسبوع . ولدا سموف لا سمع وقته هذه المرة بلقاء « طالب حمادى » . ولكن هذا اللقاء غير ضرورى ، فسوف يجتمع شمل ثلاثتهم فى الصبح ليرسموا تفاصيل خطة النسل إلى بئر سبع بأنم عنايه

إما فى هذه المرة فهو ذاهب إلى الظهيرية كجزء من خطته السعدية المدى التى شرع فى تصدها منذ سنوات ، وهى السعد بأهالى المنطقة ، والأرسلط دواصر اللعبة مع أعداء الد .

(م ١١) الطريق إلى بئر سبع ج ٢)

الأردني الذي يراقب الحدود هناك ، توطئة للمستقبل ، لا تدرك في ذهنه أن الخطر من جانبهم سيكون أشد من خطر اجراس الإمبراطور . لشدة حرص الأردن على إتقان التسلسل لما دسسه من صطراب ومتاعب . وكان تعليق وليد على هذا : « أنهم على صواب من وجهة نظرهم بطبيعة الحال ، ولكننا نحن أيضا على صواب من وجهة نظرنا ، لأن من حشا كلاجئين أن نعود إلى وطننا وديارنا ... إنه حق طسمي ومقدس » .

وكان لقاء أطول ووليد في مقهى صغير في وسط البلدة ، ثم خرجا للسير معا تحت ظلال الأشجار وهما يتحدثان الحديث . وسأل وليد صاحبه : « كيف حالك الآن مع طالب ؟ » .

— لا علاقة لي به تقريبا . فهو لا يكلني إلا للضرورة القصوى . وما أقل فرص تلك الضرورة في الواقع . ولا أدرى سبب شعوره العدائي نحوي ، أهى الفقرة ؟

— إنه لا يثق بالجانب الإنجليزى في تكوينك . ولم يكن ينبغي لي في الواقع أن أسارحه بأن والدك إنجليزية .

— ولكن أباهما يشعر نحو فلسطين بشعور العرب أنفسهم .

— من غير الممكن أن تحبل طالبا على تصديق ذلك !

— كم أتبنى لو أنه لم يشترك معنا في مشروعنا .

— ولكننا بحاجة إليه . فهو دليلنا . وبمرور الزمن سيثق بك متى وجدك حادا في حمايتك للفكرة . أخبره على كل حال أنك قابلتني وأننى ذاهب إلى الخليل والعلهرية .

وافترقا بعد ذلك ، وقد خابرا أطولنا احساس — لا يدري معته — بالضيق ، وكان شبكة توشك أن تطبق عليه فلا تقلنه . إن الصفاء منه وبين صديقه لم يعد خالصا كما ي قبل !

- ٥ -

وطوال ذلك الرسع كان انطون يحدث نفسه بأن الصنف
ات لا ريب فيه . وأن وليداً وثرياً سيفقدان مروت في
منصف يومية عائدتين إلى رام الله . وكانت ثربا قد كتبت
إليه رسالة واحدة . إلا أنها كانت كافية جداً . فقد أودعتها
كل ما يمكن أن يقال . وحبيها بغولها : « احضري في بيت
ما عزيزي انطون مثلما احتفط بك في قلبي ! » . ووقع
رسالتها تلك الكلمة الجريئة : « حبيبك ثريا » .

.. وفي مسبعة الآن ان يعيش مطمئن النفس إلى أن كل
شيء على ما يرام . وأن قلقة الذي شاب أحلامه وإمانته
المعادنية لم يعد له محل في حياته . فقد أوشك الحلم أن يكون
وقعا محسوسا . وقد عول عند مدومها في منتصف يومه على
أن يصحبها لزيارة بيت أسرتهما . وأن يطلب إلى أبيها وإلى
والدها أن يدارك حطبتها رسميا . ولئن كانت ثمة صعب
تكثف سبيلهما ، مهي صعب ما أهونها أمام الأهرام الذي أسع
من الجناس . وكل ما يصو إليه الآن أن يحل اليوم لدى
تأكد فيه هذه السطور المقروءة بلهسة اليد ولمسه الشفاه .

ودامت يوم ، تكررت معاجزة اللقاء في القدس في شهر
أبريل ، ولكن بصورة أخرى ، عندما رآها ذات يوم تحاز ماء

المعهد وفي صحبتها رجل لم تزل به آثار الشيبان ، حيث
الغامة ، يشبهها شبا شديدا . مادرك على لغور أنه أبوها .
يكل انطون ملقى درسا في انبواء الطلق بحث شجره .
عندما رأى الزائرين يعبران . ماشئت وحيث قلبه . وحرف
العلامد . ثم تقدم للقاء ثريا والدكتور مسانا . وكانت ثريا
بردى ثوبا أبيض وحذاء أسضى اللون عالي الكعب . وتندو في
أوج حباتها . وصاحت به بعد أن قامت بمقديه إلى أبيها .

— لابد أن تعود معنا لتناول الغداء ، لأنني أريد أن أقدمك
إلى والدي وسائر أفراد الأسرة .

— لست أدري هل هذا في المستطاع أم لا ، لأن لدى درسا
سالتيه في الثالثة بعد الظهر .

وعندئذ قال الدكتور مسانا إن المعيد صديقه ، وأنه سيرجوه
أن يبع التلاميذ عطلة بعد ظهر ذلك اليوم . وبعد قليل
كانت سيارة الدكتور مسانا بقلهم ، ومد جلس الدكتور إلى
جوار السائق ، وحلست ثريا مع انطون في المقعد الخلفي .

وقد تشابكت يداها خلصة . وقال لها هامسا : « يجب أن
تطلب إليهم اليوم الموافقة على إعلان خطبتنا . » فاحمر وجه
ثريا وهزت رأسها ، وضغطت على أصابعه ضغطا شديدا .
وخيل إلى انطون أنه لن يشعر بما عاش بئلا السعادة التي
غمرتها في هذه اللحظة !

أما انطباعاته بعد ذلك فلا تتجاوز احساناته العابرة ببيت
أبيق ينوسط حبيقة واسعة الأرجاء ، فوق ربوه تشرف على
واد عريض . وفي ذلك البيت وجوه باسمه مشرقة ، لأسماء
سمعتها ولكنه لا يعتقد أن ذاكرته وعت شينا منها . ولدت بطاره
سها على الحصوص . وحده امراه دخل إليه لأول وهلة انها
شعيرة ثريا الكرى ، ثم اتضح انها والديها ، وتد رحب به
أحر ترحيب ، وأكدت له أن بيتهم بيته منذ الآن .

ولدت ذلك مادية غداة احتفالية خيل إليه أن الطعام فيها
يكن كلاساً مكسدة . وبعد الغداء انتهزت ثريا أول فرصة
ساسة وتعلات برغبتها في الطواف به بين أحواض الزهور
وأشجار الماكيسة في الحديقة ، كي تفرد به هناك ، حيث
قالت له :

— لقد ملت لأبى إنا راغبان في إعلان الخطبة ، مقال إنه
لا يمانع في ذلك إذا كنت أسرتك لا ترى مانعا من إعلانها ،
إلا أنه لا يريد أن يتم هذا الإعلان إلا قبل عودتي إلى بيروت ،
وعندئذ بقيم لنا حملا كبيرا ، يدعو إليه جميع الأثارب والأسيار
والأصدقاء ، ويحضره كذلك آل منصـور وآل داود ،
ويأخذوا لى استطلاعات والدتك القجوم أيضا .

— ما لها من مكرة بدية . وإن كنت لا أدري بالضبط هل
سيكون في مقدورها أن تحضر في ذلك الحين أم لا .

والفيا نفسيهما تحت عريضة من نبات الجهنوية تواربهما
عن انظار من في البيت ، موقفه والتفت إليها بنظره رحاء .
ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق يمه على شمتها . ومن
سبب لم سرحا بحث ضلله على نحو ما كنت تفعل دور .
وعندما اطلها من بين ذراعه نهذت وقالت بانماس مقطعه .

— هيا بنا نعود إليهم قبل أن يفتقدونا .

— ولكني أريد أن أعرف منك هل تحبيننى ؟ . هل ؟

— طبعاً ، طبعاً . أنت تعرف هذا . وقد كتبتك إليك !

— مطلق صحكة سعادة صافية وباطل ذراعها عاندين .

هذا كله لم يكشف به لطار صديقه ولدت الذي راره بعد
سبعة أيام وهو في طريقه إلى الخليل . وتحت ظلال شجرة
س عسقه في طرف الصيغة الأتسى ، جلس « طالب معها ،
وراجع الثلاثة خطة العمل . فقال لهما وليد إنه سوف لا يعود
إلى رام الله قبل نبعذ المشروع . وأن عملة بئر سبع سبدا
سبدا في اليوم التالي لوصول طلب وأهلون إلى الظهرة ،
حيث سيقظرها . والمراسلات قبل ذلك ممنوعة !

وكان من المقرر أن يحصل طالب على إجازة مدتها أسبوع
في شهر سبتمبر ، على أن يختار أسبوعاً لا يكون القمر فيه
درا . وأخرج وليد من جيبه مفكرة ، وبدأ الثلاثة يتسكثرون
في التارمح .

وانتهر انظرون هذه الفرصة وراح سائل وجهي ريبه الجادين ، وشعر على الفور باختلافهما عنه . وإن علة ذلك الاختلاف كانته عيه هو وى ظروفه . مهدد العمليه التى طبل يحلم بها خطله ربع سنوات . لم بعد بالبدء له الآن فى المنهج الأول من الاهمية . لم بعد حريصا على الانطلاق نحو الظهيرة كما كان يفتنى مند بضعة شهور . علل أمانته اليوم محصوره فى البقاء قرب ثريا . وما من شيء بعد ذلك يعنيه . وكأنما عودته من أرض المعنى لم يكن إلا من أهلها . أما طريق سر سبع مدات يحلنى من مكانها كى بجانبى طريق اخرى ، هى الطريق إلى ثريا !

وفى الوقت الذى انعمت به صاحبه الى مناقشة اسب موعده ، كان هو مسررح بصاحبه تسعى قرب المعنى ، وزعمها المسيره بعد ذلك ، وقد تحولت من طائفة دلب . اتفه بنفسها ، إلى مقاة عاشقة مرتجلة الأوصال بين يديه !

وقطع عنه صوت وند الحاد حصل بملامه ابحائه : « اليس هذا راك ايضا يا انطون ؟ » . ماسرع يقول له : « هو ما تقول . ويخيل إلى انه سيكون فى وسعى أن احصل على عطلة فى نفس الوقت الذى يحصل منه طالب على عطلته ، لأننا لا نعمل فى قسم واحد من أقسام المعهد ، بل فى قسمين مختلفين » .

فتحهم وجه وليد وقال : « ليس حديثنا الآن عن التواريخ . فقد فرغنا من هذا . وإنما كنت أقول لك تسعى أن ترحل من

الحصل إلى انصاهيه بمعدك . وى بسمر طالب إيهسا مع أقاربه الذين سيحصرون إلى الخليل لاصطحابه » .

— بمفردى تماما ؟

— ليس نهما . بل سأرسل عمى منير لاصطحابك . وإنما العرض من هذا الا تسافرا معا أنت وطالب .

— يؤسمنى انى لم اكن مررا ذهى فى الحديث . ولكنى موافق طلبها على هذا الراى .

فقال طالب عندئذ بلهجة بصره : « لعلك — فى اليوم الموعد — أن تركز ذهيك ، لأنك ستكون بحاجة إلى تركيزه ، مع كل خطوه بخطوها عند التسلسل !

- ٦ -

ومن لندن كتبت لماريان :

« عزيزي أنطون »

« أسعدني أن أعلم أن الأمور جرت على نحو ما تمنيت ، بشأن ما يملك وين ثريا . وكذلك سعد حداك بهذه الأنباء ، وأنت تعلم ، يا صبيح مخلصنا من إعلان خطبتكما رسمياً ، مادامت هذه رسمتك ورعية آل سينا . أما عن افترائك أن أحضر بالشمرة للشهود ذلك الحفل في أوائل أكتوبر فهو اقتراح قبيح إلى أقصى حد . وسنكون مداسه دسنة للاحتجاج بسائر أمري الماسكولة مرة أخرى في رام الله . والحقيقة أنه من الجدير أن أذكر إلى عيان في نهاية سبتمبر ، لأعمالي بعلق بالمدحمة ، ولم أشأ أن أذكر لك ذلك من قبل لأنني لم أكن مؤكدة من الناريح . وسنترك إليك الموعد وصولي على أهل أن نتمكن من سقائلي في الملبار ، أنت « وكنتي » المستقلة ثريا . حدثك وجذك بضمان صوتهما إلى في إهداء التهانئ ، إليكما معاً » .

وخرج أمالون فرحاً مثلها بهذا الخطاب . وأطلع عليه ثريا ووالديها . وشاركه في الفرح سائر أقاربه في رام الله ، والأنسة ريس وأمين ، وكل من يعرفهم . وفيما عدا وليد الذي لم يجرؤ على إخباره بموعد الخطبة إلا بعد الانتهاء من عمله « طر سبع »

وعلى كل حال لم يعد الاجتماع يثري بمشكلة عوبصه . فقد دبر الأمر مع مسر شابلي بمساعدة الأنسة ريس كي تحلسه من العمل يوم الأحد من كل أسبوع ، فيركب دراجته إلى رام الله ويرى ثريا ، إما في بيتها أو في بيت آل داود .

ولم يكن انفردهما أمراً كثير الوقوع في تلك الزيارات . رتب أمالون لهم مكان دودج ذلك ، وأما أول حفل مهم في لبيست كبريطانيا ، وأن ثريا ليست كروزا ، وهو لا يمس إلا شيئاً أكثر من جوارها ، ويجد في ذلك سمادة لا مدد لها الشهور بالحرمان .

وصار يجد عشاء شديداً في إرغام ذهنه على التفكير في وليد . فإذا صبح في ذلك موله إهماس بالإنم لأنه حسن ما عاهده عليه . ولكن الأمر خرج من يده ، لأن ثريا صارت لا يجرأ من حديثه . وكل شيء عداها هو وهم لا بد أن يقع نفسه بواقعيته .

وأسعد حال على هذا الموضع إلى أن انقضى شهر موله . وفي أسبوعين بدأ شعق من اقتراب الموعد المحزون سداً في صدر داود . وأدعى أن شفته ساد تطبق بأدلائها علسه . ولكن الوقت أخذ يضيء ، ويدنو بمضيه شهر سبتمبر ، ويزداد بهذا الدنو قلقه ، حتى أنه لم يجد محيصاً في النهاية عن مناقشة الموضوع من حيث عمومياته مع ثريا ، من غير أن يتورط في إقتناء السر الخاص بصاحبه !

وذات يوم ، فيما هو جالس معها في حديقة بيت والديها ، سألها عن رانيا في التمثل عموماً . وليس له حق كما يحسن

في العودة إلى ديارنا ، وهو حق طبيعي ومقدس . ولئن كانت الدول الكبرى - وهيئة الأمم المتحدة - تأبى أن تساعدنا في الحصول على ذلك الحق ، مما عذرتنا أمام أنفسنا في الامتناع عن محاولة تحقيق ذلك بأنفسنا ؟ » .

— إن المسألة محصورة في إمكان هذا العمل أو عدم إمكانه . ماذا كان التسلسل ممكناً ، مجدواه مثوك فيها .

— ولكن ما رأيك إذا كان التسلسل توطئه لإنشاء حركة مقاومة سرية داخل الأرض المحتلة ؟

— كنت أمهم هذا لو أن الفلسطينيين كانوا يلبسوا أو سعى أعليه ، في الأرض المحتلة . . أو حتى لو كانوا اقلية كبرى . اما وهم لا يتجاوزون السبعين ألفاً ، فاعلموا أنهم يمكن أن يكونوا غير منطوية !

منظر إليها يصور ناسي شديد ، وقال : لو كنت واعلان من اللاجئين لما قلت هذا الكلام ! . . فوضعت راحة يديها على طاهر رده ، وغابت : « أرجو أن تصدقني حسن أعمال لك ابني لو كنت لائحة لكل راسي في الأعمال العسيرة ، المنظمة ، وغير المثمرة ، هو عين رأيي الآن ! » .

— ما أشبه هذا الكلام بكلام من يسمون أنفسهم — أو يسميهم الإنجليز — بالمعتلأ ، أو من يقبلون الأمر الواقع ويسلمون للهزيمة ! فقد حصرنا الجولة الأولى في هذه الحرب مع اليهود بسبب التقصير والخيانة ، وما لم تفعل شيئاً ، سنظل خاسرين إلى النهاية !

— ليس إلى النهاية . نعامل الزمن في حائبنا !

— كثيراً ما قيل لي هذا من قبل . ولكني لا أستطيع الصبر لمدة سنة . بل لابد لنا من العمل العاجل . وإن كنت قد نعتدين أن ما أقوله بعيد عما يسمونه « عقلية اللاجئين » .

— لا أكتيك أن هذا رأيي معلاً .

وعندئذ خيل إلي أن استمرار المناقشة غير مجد ، وتبني مجاة لو أن وليداً بجواره كي يرمع من روحه المعنوية وسوى من إيمانه . فقد قل من عزيمته كثيراً أن يجد ثرياً معارضة لرايه ، مثله في ذلك مثل أمه وحده وصديقه أمين
ننه أن مسر شالبي يمكن أن يثير له الطريق ، فانهز مرسته انفراد به بعد أيام — وهما في طريقتهما إلى إحدى القرى سيرا على الأقدام ، لزيارة أسرة لحيها ابن مكثف يرجح سحله ويديره وبنات هباحه كل من حوله — ملقى باله .
محاداة سؤاله :

— ما رأيك في التسلسل ؟

— وسيلة خرقاء . ولا سبيلها من الناحية الأخلاقية ،

— الا نعتقد أن من حشنا نص اللاجئين أن يعود إلى ديارنا ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ؟

— بلى ! هذا امر لا مراء فيه ، ولكن السبيل إلى هذا امر التسلسل المردي ، لأنه يخرج الدولة التي يسميها اللامس
وليس من حقا أن تشككو من عدوان حصك إن أنت سلكك سبيل العدوان !

— وهل من العتوان أن يحاول المرء العودة إلى داره ؟
 نعم . إذا كانت الوسيلة متوافقة للقانون والمظام !
 وما العمل إذن ؟

— وجهة نظري في هذا هي وجهة نظر المهاتما غاندي .
 فالوسيلة المناسبة هي العمل الجماعي السلمي المسمى 'المساعي'
 للعدوان والنعف . هل تذكر أرحمك الله يدعو الملاح إلى أن
 إنك بدمع لا تذكره لك لم يكن ضد ولدك بعد . إن
 الحكومة الإنجليزية في الهند كانت تحتكر الملح ، وبسر
 على صرافات باهظة ، فبمر المهاتما غاندي أن يدعو الشعب إلى
 الامتناع عن أداء تلك الضرائب ، فاعترض ذلك الامتناع بحراً
 من معركة العصيان المدني . وبرغم المهاتما غاندي في يوم من
 به أمسه زحفوا إلى شاطئ البحر ، حيث استخلص بيده
 حبه من الملح — وهو عمل لا يعدو في قيمته أن يكون رمزاً ! —
 وعلى هذه الصورة أمثل معسكر اللائش أكبر في الأرض ،
 أو معسكر المعسكرات الموجودة في هذه البلاد ، وقد عاينها
 مكانها حدها ودفقوا في مسيرهم كبرى فواجها جيش عزم من
 الحياض المؤلهلى الثياب ، راحقين وهم غزل من السلاح نحو
 الحدود التي مرضت عليهم سماء . رجالاً وساء وأطفالاً ،
 وجهتهم ديارهم المملوكة . وقد لا يتمكنون من تجاوز
 الحدود ، أو قد يصلون إلى الشقة الحرام ، ولكنهم سيوزر
 ضمير العالم !

— ولكن مدافع اليهود الرشاشة مستحصدهم من أوكارها
 فوق قمم التلال ، ومن الطائرات !

— وهل يعقل أن يحصدوا الوفا من العزل من السلاح في
 مثل ذلك الموكب الرهيب ؟

غصخ انطون : « أنهم لا يتورعون عن ذلك . ولن يعدو
 الأمر في نظريهم أن يكون مذبحة أخرى من سلسلة
 مذابحهم ! » .

وهكذا انتهى ذلك الحذل الحب إلى الأضيق ، ولم يجد
 انطون من يسانده في موقفه .

- ٧ -

وفي أواخر سبتمبر ، قبل الموعد المتفق عليه ببضعة أيام ،
مار أطول لتريا إنه قد أرمع الذهاب لفضاء بضعه أيام مع
وسد وعائنه في الحفل ، وقد سسغرق هذه الزيادة أسبوعاً
على الأكثر . ووقع معها هذا السد موقعا غير حسن . لأن عطلة
الصف قد ادسب بالإنهاء . وعندئذ سسعود إلى بيروت .
فلا تيسنى لها أن تراه إلا في عطلة عيد الميلاد . وقالت له :
« لا سسعى لك أن تحلل العناب . ملا بدنا من إعداد لعدده
لجعتنا كما تعلم » .

وكانا جالسين في ركن منعزل من حديقة آل سلبا ، نطويق
مكتفئها بدراعه ، محولت وجهها إليه . فطبيع على شفتئها
قننه داعبه . سمة ال : ما أسعدنى ! كم ودبد لو لم بد
لزما على ر دهب إلى الحفل . ملا بسى سى سون غصاء كل
دقيقة من المدة الماقئة معك ! ! .

— لماذا إئن تذهب إلى الحفل ؟ ما الذى يلزمك بذلك ؟

— لقد وعدت وليدا !

— وهل أمره يعنك إلى هذه الدرجة ؟

— إنه صديقى الكبير . بل صديقى الأوحده . كنا تلميذين
في المدرسة معا ، وظللنا على اتصال مستمر طيلة غزمتى في
إنجلترا .

— كل هذا مفهوم . ولكنه لم يعد الآن صديقك الأوحده .
فأنا الآن في حياتك .

مناحبها بإصرار : « أنت حبيبى ، أما هو صديقى .
والأمران مختلفان . فحبى لك لا يفر من شعورى نحو وليد .
وان في لواقع لا أريد أن فندلع من وفى معك بالذهب إلى
الحفل . وكفى كنت قد وعدته بذلك مدد زمن سويل جدا .
ولابد لى من الوفاء بوعدى ! » .

.. فتنهدت ، ثم قالت : « كما تشاء . ولكن لا تعامل
العيباب » .

— سساعد في الوقت المناسب لإقامة الحفل .

— إن شاء الله .

— أجل . إن شاء الله .

وسافر أطول ومطالب معا بالسيارة العامة من بيت نجم
إلى الحائل . ووقفت الأنسة « ريس » تؤدعها ملوحة يدها
« سى » . سعيد الريسى . أما أس فقال لأطول وقد وسسع
يده على ذراعه : « عد إلينا سريعا ، فإلى سافنتقد أحاديثك
وسمرك في الليل .. مع السلامة » .

وفي الطريق ، لم يسأل « طالب » أنطونا إلا سؤالا واحدا
بخصوص الحصول على الترخيص . وفيها عدا ذلك لم بوجه
إليه كلمة واحدة . وكانت السيارة العامة تمر في

طريقهما - بين بساتين التفاح ، والحقول المزروعة -
ومعسكرات اللاجئين ، وطالب يطل على تلك كله من النافذة
بوجه صارم ، تطب ، وفي ذهنه أنه لولا عملية بئر سبع هذه ،
لما سمعه أن يقضي أسبوع العطلة في معسكر اللاجئين مع
زوجته . أما الآن فإن يسعه أن يقضي معها ، من هذا الأسبوع
كله - يوماً واحداً ولا ليلة واحدة . ولم يكن قد أنبأها بأمر
الانذار الذي حصل عليها ، أو ما اعتزم أن يصنعه فيها ، لكنه
قد أخبرها بعد عودته ويرى لها أنباء يسقط رأسها
(بئر سبع) .

كان والد في استة مال السيارة المسماة في الخليل - منزل
الوجه منشرح الصدر . فمقدّم إعداد العدة لاستخراج
ت ، وما عليهم إلا أن يذهبوا إلى بلدية المدينة
بها .

ال ولد لا تعلمون إن عمه منير في المدينة ، وسيصحبها
ة . أما طالب فيتوقع وصول أقاربه من
الارة العلية التي تصل بعد ظهر ذلك اليوم .
قال طالب حمادي لواليد : « وحي سننلق إلى هناك لا »
رحاب ولد : « الليلة . ملابس هناك ما يدعمو للتسكع هنا » .
وعندئذ سألوه أن يحاول أن يجعل لهجته طبعية :
« ثم بعد يومك داروما في اعتمادك للوصول إلى هناك لا »
تعال . « لا » ان الم . « تلغ نحسو اثني عشر كيلومترا
بالأفق الم . « لا » لا . « لا » لا .



شهرت ، هم قال : « كذا بساء . ولكن لا نزل الصاب » .

وسيكون السير في هذه الحالة شاقاً جداً وتحت حرج الطلاب .

وقال طالب : « ربما استطعنا أن نقطع المسافة في ثلاث ساعات . فقد رتبنا كل شيء في ذهني ، على أن نجيب المرور بالقرى والكثور » .

وكانوا ينكبون وهم في طريقهم إلى البلدية ، يأتونهم باد على وجه طالب كالعاده . أها وليد مكان على سجيته ، إلا أنه كان جادا . وأما أنطون فكان يشعر بهبوط في عوا وروحه المصوبة . حتى لقد عجز عن استماع ذلك الأستاذ ، التي كان يجيدها . وقبل أن يصلوا إلى البلدية ، لحق بهم العم مبر ، فحرب بأنطون ترحيباً حاراً . وقال الطالب : « بيني هو بيتك ، يا مرحباً » .

وصحبهم إلى البلدية حيث كان له صديق من مؤلفيها . فاستطاع الحصول على الترخيصات على الفور ، من غير أن يحشروا الانعطاف مع عشرات المنتظرين . ثم قال وليد لأنطون : « سوف لا نذهب في هذه المرة إلى الحانوت ، لأنني لا أريد أن نعلم أغرسي ندهما إلى الطهيرة . ولكنك ستزدهم بعد عودنا . وإذ كانت هذه المرة ، سيتم وضع معبرين ، لأني قد أرى في سر سبع مدّة شهر .

ثم توجهوا إلى مطعم نسعى في شارع حلي بالمدينة . وهناك شعر أنطون بحالته النفسية تزداد سوءاً ، فلم يستطع أن يمس الطعام . وتطر إليه طالب بحث ، وقال : « كائن بك

خائف » ، وقال وليد : « كثيراً ما تتوتر الأعصاب عند اقتراب ساعة الصفر » ، فقال أنطون : « ليس توتر أعصابي بسبب خوفي من عملية التسلل ذاتها - فما أكثر من يقومون بها - ولكن في الحقيقة لم أعد مؤمن بحدوى هذه لعملية » .

ونظر إليه وليد بطرد صارمه . أما طالب فصحك ضحكاً استهزاء . ثم قال وليد بصوت باتر : « يبدو أنك لم تعد تملك الإيمان إلا بعاه تدعى ثرب سبنا ! إنك لم تعد تؤمن بعملية بتر سبع ، ولا بالتسلل . لأن هذه الأفكار كلها ، لم تعد مناسبة لك ! » . ثم دفع وليد صحفته من غير أن يتم بعاهه ، في حركه بذل عني منهى الاشمزاز والسرور . ورفع يده إلى أنطون وقال : « هناك سياره عابه نعود إلى سيد ، ثم بعد الظهر . ومن الخير أن تستملها . بل لعل أفضل من هذا ، إنك لن تعود إلى أندريا حيث سيمى ، وأن نطلع معك الآن ، دينا ، اسمك إلى العروبه التي كان أبوك من أطباءها . نأيت إنجليزى كالك ! إنجليزى حتى التضاع ! » .

نهض أنطون عن المائدة ، وقد شحبت وجهه شحوباً شديداً . ثم دأب على المشي في ساحة ، وقال : « سبعة من ، لأنه لم يعد ثمة مبرر إبقائي » . . . فغسل وليد يديه : « إطلاقاً » .

وأطلق طالب ضحكة ساجرة ، وأولاهها أنطون طهره . ولم يلبث أن احتفى .

— هذا يتوقف على سرعتيها في المرحلة الأولى . وهذه المرحلة تقع في الشقة الحرام . وهي أصعب المراحل . ولكن طالبا يعرفها بأشهر . ووليد قضى السنوات الأخيرة في تفقدها بين الحين والحين ، وهو يتظاهر برعى الأغنام أو العمل في الحقول ، كلما سنحت له فرصة للحضور إلى هنا . أما أنت فمن الجنون أن تجسّز في الماضي وحده لا تعرف تفاصيل الأرض في هذه المنطقة .

— ولكن لا مناص لي من الذهاب !

— وما الذي جعلك تغير رأيك ؟

— وجدت أن إحساسي العميق بقوميته أرجح عندي وأني من نداء العقل ، وصوت المصلحة ، وروابط العرافة الأخرى . واحزاني أن يصنني طالب بأنني إنجليزي . ثم لم يلبث وأيد أن تبعه في ذلك ورسائي بأنني لا أصلح إلا لصحبة النساء !

— ولكنك على الأقل يجب أن تأكل شيئاً قبل أن تنطلق . ولم يسمح أنطون إلا أن يشرب الشاي ويأكل كعكة بها قديم إليه على خوان من النحاس — على الطريقة العربية — مع شيء من جبن الماعز والزيتون الأسود . ثم كرر عليه منير ووالده العجوز النصيح بالآ يجازف بالتنسل في الليل وحده وهو يجهل كل شيء عن المنطقة . ولكن أنطون قال : « لا بد من هذا . وفي وسعكم أن تساعدوني . لمهني أعلم أن طالبا رسم خريطة لهذه المنطقة غاية في الدقة . فهل لديكم هذه الخريطة ؟ »

وجاءه منير بالخريطة . وكان أنطون قد تدرب على قراءة الخرائط العسكرية في معسكر التدريب في إنجلترا ، وأظهر في ذلك تفوقاً ملحوظاً ، فعمل يطبع في ذاكرته جميع التفاصيل . وكى يطمئن منيراً طوى الخريطة ثم شرع يرسها من ذاكرته . فلم يترك منها شاردة أو واردة .

وعلى باب الدار ، ودعه منير وسائر أفراد البيت ، قائلين :

— كان الله معك . مع السلامة .

وكانت الليلة حالكة السواد ، لا قمر فيها . وأخذ أنطون يتحرك بحذر ، والخريطة مرتسمة في مخيلته ، وهو يحرس على ألا يحدث صوتاً يمشيه فوق الحصى الكبير غير المتناسك . وفي بعض المواضع كان يضطر للزحف . وقدر أن ولجداً وطالبا لا بد قد اجتازا خط التقسيم ودخلا في البرية منذ أكثر من ساعة . ولعلهما قد اجتازا البرية أيضاً ووصلا إلى سفح التل . وحين يقترب منهما — زاحفاً في الظلام — شد بتأنيهما الرعب ، بل قد يثبان إليه ، ولكن جسبه أن يهمن باسم وليد ، قائلاً له « ها أنذا قد أتيت يا وليد ! » .

وهذا نفسه عند هذه الخاطرة . وكانت الطريق تبدو متعرجة بين التلال ، منحدرية إلى بئر سبع . وجلس يستريح قليلاً ويبتلع أنفاسه اللاهثة ، ويصفى لسكون الليل يمزقه نباح كلب في مكان بعيد ، عند أحد معسكرات البدو . وجاوبته بالنباح كلاب أخرى في قرية مجاورة ثم لم يلبث

الصوت أن خبا . وأعقبته بعد قليل نغمات من ناي بعزفه شخص ما داخل كوخ مقل .

وانتقلت خواطره إلى الحراس اليهود الكامنين في أوكارهم فوق التلال من الجانب الآخر . أترامهم يلعبون الورق الآن بين نوبات الحراسة وأوقات الدورية ؟ هل إحدى دورياتهم الآن تجتاز الوادي ؟ إن مثل هذه الدوريات هي الخطر الحقيقي ، أما الحراس فوق رؤوس التلال فلا خطر منهم في هذا الليل البهيم . وإنه ليعجب كيف استطاع وليد وطالب أن يفلتا .

ونفض وشرع يهبط إلى بطن الوادي بحذر . وكانت الحصباء تنزلق تحت قدميه ، ولكن صوته لا يسمي في الليل طويلا . وهو مستمر في زحفه ، مستترا بالصخور البارزة ، متنحلا بينها على يديه ورجليه . ثم يتوقف بين الحين والحين ، ويصيح السمع .

واصلطدم في زحفه بشجرة من الشوك ، فأممت يده وكاد يصرخ من الألم ، وأنجست الدموع من عينيه ، ثم زأله الألام عندما جمد الدم في عروقه لسماعه نباح كلب يقترب منه بخطوات واسعة . ثم لم يلبث النباح أن بعد ، وتبين أنه لم يكن كلبا كما يخشى ، بل ابن آوى .

كان يتقدم ببطء والمسافة قد أمست في نظره أطول مما يتصور . وتراعت له على البعد أنوار كشافة فخلق قلبه خشية أن يسقط عليه شعاع من أنوارها من فوق إحدى

القمم ، وأنشأ يجري كي يختصر المسافة ويحتمي بالجانب الآخر حيث سفلح التل ، وحيث يقدر أن صاحبيه قد وصلوا منذ حين . وتعثر وهو يجري ، وسقط على وجهه ، فظل بلا حراك وقتا طويلا ، وهو يرهف السمع ، ولما اطمأن أخذ يزحف على بطنه خائفا من الوقوف على قدميه ، وجعل يشجع نفسه بجميع الخواطر الممكنة ، ويحاول أن يتذكر بقية الخريطة ، وموضع بيت شقيق طالب قرب السوق في بئر سبع . ونظر من فوقه إلى النجوم وقد أخذت تتكاثف فيها خيل إليه .

واستجمع قواه ونهض ، وأخذ يجري بخفة .. ولكنه تعثر مرة أخرى ، فعدل عن الجري إلى السير البطيء ، إلى أن وجد الأرض مستوية تحت قدميه ، خالية من الصخور التي يمكن أن يتواري خلفها حتى قاعدة التل التي يقدر أن صاحبيه يجلسان عندها . ونهى لو استطاع أن يقطع هذه الأرض المكشوفة منتصب القامة ، حتى يرياه على تلك الهال ، ولكنه لم يجسر . واستمر يزحف على بطنه . وفجأة تجدد النباح . واقترب الكلب منه اقترابا شديدا ، فالتفت حصة قذفه بها . ولكن نباح الكلب اشد ، ثم تبين عينيته في الظلام على قيد اقدام قليلة منه . ثم سمع لفظ كلام لم يبينه ، فلم يكن أمامه إلا الفرار السريع . ووثب كالأيل الشارد ووجهته بطن الجبل ..

ومزقت سكون الليل طلقات مدفع رشاش !

ومات أنطون قبل أن تسقط جثته الدامية على أرض
الشقة الحرام .

* * *

وبعد بضع ساعات بزغ الفجر على وليد حسين وطالب
حمادى وقد دخلا بئر سبع .. وعلى طائرة ماريان وهى فى
طريقها إلى عمان .. وعلى ثلة من الرجال يحملون إلى خط
التقسيم جثة شاب فلسطينى ليمسوها إلى حرس الحدود
الأردنيين .

وتجمع حشد من الناس صامتين ، كان على رؤوسهم
الطير .

إنه شهيد آخر - ولن يكون الآخر - على الطريق إلى
(بئر سبع) !

« تمت القصة »





مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارى :

إبراهيم هاتين - مؤلفة هذه الرواية المشوقة - رواية إنجليزية معاصرة - من أصل إيرلندي . ولدت في لندن عام ١٩١١ . وهي تعتبر - عصامية - ثلثت نفسها بنفسها - إذ اضطررتها الظروف إلى ترك المدرسة في سن ١٤ سنة - لكي تعمل كاتبة اختزال في وكالة للإعلانات . ثم تخرجت في العمل حتى صارت - في سن ١٧ سنة - مساعدة محرر مجلة المرحية والرياضية (ذي بولكان) .. وهي سن الثانية والعشرين كتبت روايتها الطويلة الأولى . ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة . ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام بانتظام .. كما ألقت عدة كتب في أدب الرحلات وصفت فيها سياحاتها في كل من (بروما - والهند - وروسيا - والمغرب - ومقاطعة (بريشا) بفرنسا - واليابان . ثم الشرق الأوسط) . وقد ترجمت كتبها إلى اللغات الفرنسية - والألمانية - والهولندية - والألمانية - والإيطالية - والسكندنافية . وهذه القصة الثمينة التي صورت فيها أسافة العدوان الصهيوني الفار على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ هي أحدث رواياتها . وقد صدرت في لندن منذ بضعة أعوام . وصدرتها بالإهداء التالي : « إلى اللاجئين الفلسطينيين ، ومن أجلهم - أولئك الذين قالوا لي في كل الاقطار العربية التي استعصاقتهم : (لا تكن قسما منا نحن - قصة الخروج الآخر - خروجنا نحن) » .. وأعطيتكم أرضا لم نعتبرها عليها . ومعدنا لم نضوها ونسكنون بها . ومن كروم وزيتون لم نقرسوها نأكلون ..»

(سفر يشوع من التوراة - عدد ٢٥ / ١٢)

وكتبت المؤلفة مقدمة للرواية قالت فيها : « حتى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ كانت ثمة دولة تسمى (فلسطين) - وهي بلد عربي العنيفة بصورة واضحة - وهون صدر وعد «بلفور» في نوفمبر ١٩١٧ مقرر أن الحكومة البريطانية تؤيد قيام وطن قومي لليهود في فلسطين . كانت غالبية السكان هناك من العرب - بنسبة تزيد على ٩١ في المائة . إذ كان في فلسطين يومئذ نحو ٥٠ ألف يهودي - أما المسيحيون والمسيحيون فكان عددهم نحو ٦٧٠ ألفا .. ولكن في سنة ١٩١٥ كان اليهودي والصهيوني البار «هيرت سميريل» قد أدى بيهجرة ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود إلى فلسطين تحت الحماية البريطانية . فوشعت من ذلك الطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها . وثبت أن مايرمون إليه ليس إنشاء وطن قومي لليهود بل إقامة دولة يهودية مستقلة الأركان لا وثا صدر إعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الحل البديهي في نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية ! وفي سنة ١٩١٩ أصدر الزعيم الصهيوني «وايزمان» تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغي أن تسيطر يهودية مطلقا تعتبر إنجلترا (إنجليزية) ! وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كان عدد اليهود في فلسطين قد قفز من ٥٠ ألفا إلى ٦٠٠ ألفا ..»

حامى مراد